واو الصفر

«في روايات الكوني يصير القيظ والريح والجوع والعطش من الثوابت. سلطة الطبيعة تنهض أمامنا، إلى جانب حيوانات كالودّان والمعز والإبل، كمجاز لإمكانات استمرار الوجود في مواجهة طبيعة متقلبة المزاج على نحوٍ أبديّ».

الناقد الأمريكي روجر آلان
من دراسته الجديدة: «ثلاث أصوات في أدب شمال إفريقيا»

«نثر الكوني يأسر بثرائه الشعريّ عن غربة الطبيعة الصحراوية الغنيّة بالأساطير، ومعتقدات أهل المكان. هذه الرواية تنبّه إلى مسألة كمْ هو خطر العيش في عالم كعالمنا».
صحيفة «أوبرغيسّن» حول رواية «نزيف الحجر»

«ينطلق الكوني في أعماله الروائية ليلمّ شمل شتات واسع تجتمع فيه تقاليد الأسلاف، والأساطير المحليّة، والتصورات الدينية (من قرآنية وإنجيلية) وصولا إلى إرث رموز الآداب الأوربية القديمة، إلى جانب إنجازات الأدب العربي، حيث يقوم بتوظيف عناصر واقعية بمناخ رمزية، مازجاً العناصر السوريالية بالتصورات الخرافية والحكائية والأسطورية».

الناقدة السويسرية فريدولين فورغر
«صوت هام وفريد في الأدب العربي» صحيفة «نيولوتزرنر زايتونغ»

«في فضاء واسع كالصحراء، وفي أمكنتها البؤرية (الصخرة، الهاوية) أمكنة متفرقة عدّة، لاينمو إلاّ الإحساس بالعزلة والفردية... ففي الرواية الكثير من الدلائل التي تشير إلى أن الشخصيات تحاول، من خلال وجودها الفردي وعزلتها في الصحراء، أن ترتبط بالأرض ارتباطا رحميّاً أشبه ما يكون الارتباط بالعودة إلى كهفية زمنية-مكانية، أي أن الشخصيات انفصلت عن الأم الأولى، ثم حاولت ، من خلال السرد، العودة إلى ذلك الرحم، أعني الطبيعة، وهذه العودة بالضرورة عودة سيكولوجية».

الناقد العراقي ياسين نصّير
عن دراسته حول «نزيف الحجر: دراما الصحراء الذاتيّة»

« مفهوم الإلكستروفوبيا في الأدب العالمي مرتبط بشكل أساسي بالمكان الحضري المكتظ بالمباني والسكان والأسواق. إن اختناق «تازيد يرت» في الصحراء الواسعة يشبه إلى حدّ كبير حالة الاختناق نفسها التي تصيب أبطال رواية «يولسيس» لجيمس جويس، و «الغريب» لألبير كامو، و «القيظ» ليوسف الشاروني، مع فارق أن الفراغ في قصة الكوني صحراوي واسع، أما في قصص الشاروني وجويس وكامو فهو فراغ حضري».

الأكاديمي المصري د. أشرف عيسى
عن دراسته : «كرونوتوب الصحراء في قصة « نذر البتول»

إبراهيم الكوني

واو الصفر

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس..
بدر

رواية

إبراهيم الكوني

واو الصفرى

رواية في سِيَر

واو الصغرى / رواية عربية
إبراهيم الكوني / مؤلف من ليبيا
الطبعة العربية الأولى ، ١٩٩٧
حقوق الطبع محفوظة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، سالمية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ١/٨٠٧٩٠٠
تلكس LE/ DIRKAY ٤٠٠٦٧
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس ٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفني :
سمير سيف ®
لوحة الغلاف :
لفناني ما قبل التاريخ ؛ من رسوم منطقة تاسيلي ، الألف السابعة ق.م (الصحراء الليبية).
الصف الصوتي :
ساجدة العجوة، عمّان هـ ٧٨٤٢٣٨

All rights reserved. No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر

١

أهل السماء

« كيف؟ ألا تقول أن السّماء والطير برهان على وجود اللّه؟ »

بليز باسكال

« الأفكار »

(١)

أقتنص في الصوت تعدّد الأصوات منذ الأيام الأولى .

بل يستطيع أن يؤكد لنفسه الآن (بعد مرور المواسم، وتدفّق السيول في الوديان) أن هذا الحشد السحيّ من الأصوات الذي يجود به الطائر الخفيّ هو السرّ الذي شدّه إليه طوال هذه الأعوام. صوت عليل، واهن، يماثل صفير الريح في عيدان القصب، يستحيل نقله إلى لغة الحروف، ولا يمكن تقليده باللسان، يبدأ أنيناً خافتاً، فيستيقظ الشجن في الحال، يعلو في نغم عنيد، فيتشبّه بوتر الحزن في إمزاد، الوتر الوحيد الذي يلتئم بوتر سفلي وحيداً أيضاً، فيلتحما، ليبدعا، معاً، شجناً، حزناً، غناءً، ملحمةً تروي سيرة الصحراء كلّها. الصوت الخفيّ أيضاً يبدع سرّاً مماثلاً. الصوت الخفيّ الذي لا ينتقل إلى لغة الحرف، ولا يعترف برسم الرمز، ويرفض أن يُقلّد باللسان، يبدأ أنيناً وديعاً، واهناً، غائماً، غامضاً، يستفزّ الحنين، ويوقظ، كلّما ارتفع، وتعالى، شرراً خفياً، شرراً كان دائماً ناموس العابر، كان دائماً ديانة أهل الخلاء الذين لا يكفّون منذ أن وجدوا، منذ أن وُلدوا، عن طلب ما أخفاه الخلاء. يزدوج الصوت فجأة، ينضم طائرٌ خفيّ، آخر، إلى الطائر، فيولول الصوت الجديد بموّال جديد. تتلاءم النغمتان وتتلاحم في لحن واحد. لحن جديد، فتنعطف

الأغنية، وتحلّق في مدى آخر، يتبدّل العراء، وتمدّد المسافة. يشتدّ إغواء الخلاء، وتعد الصحراء بميعاد جديد. بميعاد خالد، وُلد يوم وُلد العابر، وُجد يوم وُجد العابر، ولكن العابر يمضي، العابر يعبر، ويبقى الوعْد، يبقى الإغواء الخالد، إيماء الميعاد المستحيل، الذي وُجد كفخّ عظيم، يسوق العابرين إلى الصحراء، إلى الحياة، ملوّحاً بالوعد، واعداً بالواحة، بالميعاد الذي لا يُدرك. في البُعْد الجديد يغلب الفرح، ويفيض القلب وجْداً، يرتجف البدن برعشٍ كالرقص لأن وهجاً تبدّى في الأفق، لأن قبساً شقّ ظلمات الأفق الأبدي الشاحب، فلاحَ، لغمضة قصيرة كومض البروق، إيماء تاق العابر لنيله طويلاً، وجاهد لمشاهدته أزلاً كالأبد، فوسم الفراغ الصارم، المعادي، الأبدي، بإشارة كشرر الوحي، فرأى ما لم يستطع أن يراه في المدى، ووجد ما لم يستطع أن يجده، وجد ما لم يطمع في أن يجده .

.. فكيف لا يتزعزع الجسد الهزيل برعش الوجْد؟
وكيف لا يفرّ من المقلة دمع الحنين ؟

(٢)

تستقبل الصحراء الطير مرتين كل عام: في الربيع تأتي الأسراب من الجنوب، تمكث في النجوع أياماً، ثم تتنادى لتواصل السفر إلى أوطان الشمال. أمّا في الخريف فتقبل من

الشمال، تمكث في النجوع أياماً أيضاً، ثم تتنادى وتسافر إلى بلاد الجنوب. ويُقال أن الأسراب في الماضي، كانت تختار الواحات مقرّاً للعبور، ولكن كثافة الأفواج أفزعت الأهالي، ورأوا في الغزو خطراً على الزروع، فحاربوها، ونصبوا لها الأفخاخ، وأصابوها بسهام النشّاب، وقرعوا الطبول ليفزعوها، ففرّ الطير من الواحات، وتجنّبت الأسراب المهاجرة المرور فوق الحقول، وأختارت، في الأزمنة التالية، نجوع الصحراء وطناً للعبور. فكان أهل الصحراء يتفاءلون بقدومها كثيراً، ويرى العقلاء في نزول الأسراب علامة سماوية، في حين يخرج العرّافون لملاقاتها مسافات بعيدة جدّاً عند قدومها، ولا يفوتهم أن يخرجوا وراءها مسافات أبعد أيضاً عند هجرتها. ويُقال أن العرّافين يطاردون أسراب الطير ليقرأوا أنباء مجهولة يخفيها الخفاء في مسلكه وأصواته وطرق طيرانه .

لا يبتهج العرافون وحدهم لقدوم الطير، ولكن أهل الصحراء كلهم يخرجون إلى العراء عندما يلوح في الأفق أول سرب. يهرع العقلاء أولاً لإستقبال المَلّة المهاجرة. يخرجون إلى الخلاء في جماعات متفرقة، تمشي بكبرياء الأكابر، يتقدّمهم الزعيم وحيداً ملفوفاً في لباس المناسبات. خلف الأكابر يسير الفرسان في فرق أيضاً، خلف الرجال تخرج جموع النساء، يجرجرن الأولاد، ويلوّحن بالصغار الرضّع في الهواء، يرددن

مواويل البشارات، ويزغردن في آذان أطفالهن بسبّابة تقول: هاهو الطير الذي وهبك لي في العام الذي مضى قد أقبل من جديد. هاهو، أبيل بيل،(*) الذي حملك إليّ قد أتى ليراك. الطير هو أمّك. الطير هو أبوك. الطير هو أخوك. الطير هو أهلك. الطير جاء يزور وديعته. الطير جاء ليستعيد وديعته. فمتى تكبر لترافق الطير؟ متى ترتّي جناحاً ليقبلك السرب في القبيلة وتهاجر مع الطير إلى بلاد الطير؟ . تفيض من عيونهن دموع الحنين، دموع أمّهات صحراويات، دموع أمّهات يعلمن، بحدس الأمّهات، أن الوليد إذا وُلد في وطن إسمه الصحراء فسوف لن تنعم أمّ بأمومته طويلاً، لأن الوليد الذي جاء به إلى الصحراء طير، فلا بدّ أن يحاكي ملّة الطير، ويهجر العشّ مبكّراً. واذا جاء ميعاد العبور فإن السفر لا ينتهي أبداً. الأمّ تعلم أن شرع الصحراء هو الذي سَنّ الناموس الذي يحيل الوليد بين يديها طيراً، إذا خرج يوماً، إذا خرج أول يوم، فلن تستطيع أن تستعيده، ستمتلكه الصحراء منذ ذلك الحين، ولن يلتفت المسكين إلى الوراء، لن يلتفت إلى الحياء، إلى العشّ، وسوف تفقده الأم إلى الأبد، ولذلك تشيّع الأمّ الرضيع إلى أعلى، وترمي به في الهواء يوم حلول الطيّر، وتبكي، وتغنّي أغانٍ شجيّة في

(*) أبيل - بيل: طائر الغرنيق .

مديح التّيه، لأن الأمّ تعلم، بحدس الأمّ، أن خروج إبن الصحراء ليس خروجاً إلى الحياة ، كما تأمل كل الأمّهات، ولكنه تيه، خروج إلى التّيه. خروج إلى تيه لم يعد منه أحد يوماً .

يبدأ إحتفاء القبيلة بحلول الطير في نفس الليلة .

تخرج أسراب الصبايا إلى العراء قبيل الغروب. يتحلقن حول طبل الفرح، يطلقن الزغاريد، تغنّي الشاعرات أشعاراً تميت السكون في الخلاء، وتوقظ مارد الوجْد في قلوب أهل الخفاء، فتتوارى الجنيّات في أبعد الغيران خجلاً، ويجدب رجالهنّ طرباً وابتهاجاً وشجناً، يقبلون على الجمع متنكرين في ثياب الإنس، ويقتحمون الحلقة ليناقسوا فرسان القبيلة في الرقص. يطلع القمر، يشعل في الصدور حماساً جديداً، يشتدّ الإيقاع، تزداد حرارة الأشعار، تصيب حناجر الشاعرات بحّة، فتضيف البحّة في أصواتهن جاذبية ولذّة. يترنّح النجع كلّه، وتُصاب القبيلة بالمسّ الخفيّ الذي حيّر العرّافين، و لم يجد له حتى أهل الناموس تفسيراً.

يسكت الغناء عند مطلع الفجر، ولكنّ المسّ الخفيّ يستمر أياماً، يستمر طويلاً، يستمرّ زمناً لا يُنسى .

(٣)

عندما يقبل الطير على الصحراء، وينزل ضيفاً على النجوع، لا يحطّ على سطوح الأحبية في الحال، ولا يقع في

قيعان الوديان ليضرب الحضيض بالمنقار بحثاً عن ديدان المراعي، ولا ينزل الخلوات الواقعة بين النجوع لينكش ركام الفضلات، ويفتّش في المخلّفات عن حَبّ أو فتات أو طعام لقيط كما تفعل طيور النجوع التي لم تتطلع إلى أوطان المجهول، ولم تجرّب فردوس الهجرة. ولكن الطير المهاجر يقبل على المتجمعات في قبائل كثيرة، كثيفة، متجاورة، تنقاد كل قبيلة وراء زعيم حكيم يرفرف في المقدّمة مردّداً نشيداً لذيذاً، مميزاً، تردّده وراءه كل القبيلة ككلمة السرّ.

في الجوار ترفرف أجنحة قبيلة أخرى، تختلف في اللون، ولكنها تسعى إلى نفس المكان، تطير إلى نفس الوطن المجهول، يسبقها زعيم في الفراغ، وتردّد لحناً مختلفاً يميّزها عن القبيلة التالية، كل لحن أغنية بهيّة عندما تُسمع بمعزل عن بقية الأغاني. ولكن زعماء القبائل لابد أن يلقنوا السرب كلمة السرّ، والسرب لابد أن يردّد كلمة السرّ ليعطي الدليل على انه سرب لم يخرج عن سبيل القبيلة، ليعطي الدليل على أنه مازال ينتمي إلى ناموس القبيلة، لأن من لا ينتمي إلى قبيلةٍ أصبح معزولاً، صار معتزلاً، والمعتزل، في شرع الخلاء، في شرع الطير، كائن بائس ووحيد وضائع. الخوف من الضياع، الخوف من التيّه، هو الذي يدفع كل طير في القبيلة أن يتشبّث بالعلامة، بكلمة السرّ، باللحن، فيردّد الأغنية وراء الزعيم كما يردّد إبن اصحراء إسمه يوم يخرج

إلى المرعى أول مرّة، لأن أمّه علّمته أنه سيضيع إلى الأبد إذا نسي إسمه .

لهذا السبب تتردّد اللّحون، وتتداخل الأصوات، وتتعدّد الأغاني، فتضيع حلاوة الغناء، وتتبدّد متعة الألحان، لأن الصبايا عندما يجتمعن في حلقة واحدة، وتغنّي كل صبيّة أغنيتها، فإن الطرب يفسد، وبهجة اللحون تصير هرجاً منفراً.

تحلّق الجموع في سماء النجوع طويلاً قبل أن تقرّر النزول والإنتشار في الوديان والمراعي. وقد لاحظ أهل الصحراء كيف يشتد حماسها وترتفع أناشيدها، ويزداد رقصها في الفراغ خفّة وجمالاً، في الساعات التي تسبق نزولها على الأرض. يتحوّل غناء بعض القبائل زعيقاً عنيفاً، وينقلب رقص مِلل أخرى جنوناً وحُمّى. هل لأن التنازل عن مملكة السماء، واستبدالها بأحاضيض الأرض قاسٍ إلى هذا الحدّ؟ أم أنّ السرّ الحقيقي في السفر الذي يقول العابرون أنه يهب من احترفه زماناً طويلاً لذّة تفوق في حلاوتها وإغوائها وجْد الطرب، فيتمنّون، عندما يبدأ، ألاّ ينتهي أبداً؟

يحطّ على الخباء، أو على شجر الوادي، أوّل طائر.

يهلل الصبيان إبتهاجاً، تتبارى ألسنة الصبايا في ترويض الزغاريد، وتعلو حناجر الشاعرات بالغناء الحزين .

يقبل العرّافون باحتراس الثعالب. يطوفون حول الطائر ،

يهمهمون بالتمائم، يقولون ما لم يقولوه إلاّ لأنفسهم: ،لست طيراً أيها الطير. أنتم نحن يا معشر الطير. ناموسكم أسفار، وناموسنا أسفار. ترفرفون بجناح في السماء، فنزحف بقدمين على الأرض. تهاجرون إلى أوطان الشمّال المجهول، ونهاجر بحثاً عن ، واو، تعودون من أوطان المجهول في زمن آخر لأنكم لا تجدون الوطن المجهول في أوطان الشمال المجهول، ونعود من رحلتنا في طلب ،واو، في زمن آخر، لأننا نكتشف أن لا وجود لـ ،واو، في وطن الصحراء. ولكنكم لا تكفّون عن الهجرة، ونحن لا نكف عن البحث. لأنكم تعلمون أن البطولة ليست في الوصول، ونحن نعلم أن البطولة في الطلب . فهل تعلمون، يا ملّة الطير، لماذا تختفي وصولكم؟ لأننا جميعاً نعلم أنكم نحن، ونحن أنتم، برغم أننا لا نقول ذلك لأحد ..

(٤)

ولكن هل يدوم من أعتاد إرتياد الفضاء حتى صارت له السماء وطناً، حياة الحضيض؟ هل تستطيب هوان الأرض مخلوقات وُلدت وعاشت معلّقة بين السماء والأرض ؟

مقام الطير في النجوع لا يدوم طويلاً .

أيام قليلة ثم ينطلق النّداء .

يستعير زعيم كل قبيلة دور النذير ، فيطوف الوديان ،

ويحلّق فوق البيوت، صائحاً بكلمة السرّ، مردّداً بصوت زاعق أغنية الرحيل. يختطف أفراد القبيلة كلمة السرّ، وتبتهج الأصوات بالأغنية، فيحلّ المبعاد، ويبدأ الاستنفار، فتكثر اللحون، وتتعدّد الأغاني، وتتداخل الأصوات، فتضيع حلاوة النشيد، وتتبدّد المتعة، لأن حمّى السّفر تحبّ الطرب، وساعة الإنطلاق تبتلع لذّة الغناء، فيرفرف أول جناح، يهجر أرض الصحراء، يرتفع في فضاء الصبح، فتتحمّم أجنحته الموسومة بألوان شهيّة بضياء الشمس، فتتدافع وراءه أجنحة كثيفة لها نفس اللون، يغرق السرب في الضوء، ولكنه لا ينطلق في إتجاه الوطن المجهول قبل أن يطوف الوديان ويحلّق فوق البيوت مودّعاً. في هذا الطواف الحزين، في هذا الوداع الموجع، تتبعه جموع القافلة، فيشهق الحكماء وتختنق الصبايا بالدّمع، ويبكي الصغار بصوت عالٍ، في حين يركض العرافون وراء السرب ليقرأوا في رسمه النبوءة .

تتتابع الأسراب المهاجرة في الفضاء، تتلاحق في الفراغ الصارم، القاسي، اللامبالي، الأبدي. تتزاجع أغانيها، يخفت هرج الحونها، ولكن العرّافين لا يكفّون عن ملاحقتها حتى عندما تختفي في الفراغ الموجع، لتصير جزءً من الفراغ، جزءً من صفاء الفراغ، جزءً يتلاشى ويتبدّد في اللاشيء.

هاجر الطير، وخلّف للنجوع سكونها القديم، سكونها المميت .

ولكنّ العرافين يعودون في اليوم التالي، يعودون إلى النجع بالنبوءة. يدخلون خباء الزعيم، يختلون بالزعيم ليلة كاملة، وعندما يخرجون ليواجهوا القوم، يأمرون بقرع طبول الغزو، أو يستدعون النذير ليطوف النجوع منبئاً القبائل بالهجرة، لأن الجدب آتٍ، أو يرسلون في طلب الصبايا ليزغردن فرحاً بنبأ السيل الذي رأوه في مسلك الطير.

وفي ذلك اليوم اختلى العرّافون بالزعيم الليل كلّه أيضاً، ولكنهم عندما خرجوا إلى الناس في الصباح، لم يأمروا بقرع طبول غزوة، ولم يقوموا باستدعاء النذير لينبىء القبائل بالجدب، ولم يرسلوا في طلب الحسان ليزغردْن ابتهاجاً بسيل رأوه في مسلك الطير.

في ذلك اليوم خرج الحكماء من خباء الزعيم صامتين. في عيونهم قرأ الناس إنكساراً وكآبة، في وجوههم رأى الناس وجوماً وخيبة.

٢

النبوءة

« بعد الثالثة والستّين لا ينبغي على الإنسان أن يخشى الأرض، لأن الأرض تذكّر بنفسها، وتعلن إنها هنا، تنتظر؛ بهدوء، بتمهّل، مع كل خطوة تجذبه إليها قائلة: لا تخف، إهجع، أنا لن أسيء إليك، حرّك، فقط، وإهجع ».

وليام فوكنر

« بيت معزول »

(١)

لماذا تنتقل القبائل؟ لماذا تعبر المكـان إلى مكـان أبعـد؟ هـل تفعل ذلك تركاً لأرض مهدّدة بالجفاف والمجاعات لتـدرك أرضـاً تعد بالكلأ السخيّ؟ هل تنطلق خوفاً من النبوءة القديمة التي تقول أن المكوث في أرض أربعين يوماً عبودية للأرض؟ أم إنها تتحـوّل لأن الناموس قال أن الموت على ظهور البعـائر قـدر المِلَـل النبيلـة وحدها؟ أم أن الحكمـاء يوهمـون الدهمـاء بـالتنقّل طلبـاً للميـاه والعشب في حين يرحلون إستجابة لنداء آخر مجهول لا يكشفونه حتى لأنفسهم؟

القبائل تعرف أن عمائم أهل العقـل تخفـي أسـراراً كثـيرة، القبـائل تعـرف أن الزعيـم لا يصـير زعيمـاً، والعـرّاف لا يصـير عرّافاً، وصاحب العقـل لا يصـير عضـواً في جمع الأكـابر، إذا لم يسكت الزعيم، أو العرّاف، أو صاحب العقل، علـى سـرّ، إذا لم يخفِ على الخلق سرّاً، لأن من غلبه سلطان اللسان، وفشل في أن يكتم سرّاً، لا يؤتى حكمةً، ولا يصير على الخلـق سلطاناً. هـذا السبب تستجيب القبائل لنبوءة العرّاف، وتمتثـل لنصـح صـاحب العقل، وتطيع أمر الزعيم، فتنطلق جموعاً، وراء القافلة ما أن يأذن الزعيم بالإنطلاق، وتحطّ الرحال ما أن يأمر الزعيم بحطّ الرحال.

ولكن القبائل تعرف أيضاً أيّ ويلٍ ينتظر القبائل، إذا عبس

الزمان ودخل مجلس الحكمة خلاف، أو وحد البلبال طريقاً إلى خباء الزعيم .

(٢)

....

تتوارى قبائل السماء في متاهة السماء، وتترك وراءها سكوناً، وكآبة، وطيوراً بائسة، حزينة، لأن علّة، أو جُرْحاً، أو عجز الشيخوخة، أقعدها عن مواصلة الرحلة واللحاق بالقبيلة .

في الرحلة الأخيرة هاجرت القبيلة، وخلّفت وراءها غرنيقاً عجوزاً. لم ينتبه لوجوده أحد في اليوم الأول، ربّما لأن القبيلة، في ذلك اليوم، انشغلت بالهمّ الذي خلّفه غياب الطير. ربّما لأن الحزن الذي تركه أهل السماء للقبيلة كان أكبر من الخلاء فابتلع الخلاء، وأخفى الكائنات التي تدبّ في الخلاء. الحزن، في شرع العرافين، يحجب الرؤية ويعمي البصر حقّاً. ويُقال أن الحزن الذي يتركه المهاجر في قلوب أولئك الذين يتركهم وراءه يفوق الحزن الذي يخلّفه الأموات في قلوب ذويهم. ويسوق أصحاب العقل لذلك مبررات كثيرة، فيقولون: , السفر فراق أبدي، والموت فراق أبدي، ولكننا نستطيع أن نقيم أضرحة مهيبة لأمواتنا ، أضرحة حجريّة، نزورها في الأعياد، ونتوسدها في الليالي لنستعير منها نبوآت تحذّرنا من العدوّ، أو من الوباء، أو

من الجدب، واذا تمادى الجنّ في إزعاجنا، ذهبنا إلى الأضرحة، ونبشنا الحجارة، لنستخرج عظام موتانا لصنع منها تمائم ترافقنا في أسفارنا، ونستعين بها لإرهاب أهل الخفاء. أما أهلنا الذين تركونا في سفر بعيد، فإنهم يتوهون، فلا نهتدي إلى مدافنهم، ولا نعثر لهم على أثر.

ولكن يوجد سبب آخر للحزن الموجع الذي اعتادت قبائل الصحراء أن تشيّع به أهل السبيل. سبب غامض تحسّه القبائل، ولكنها تجهله، ويعرفه العقلاء، ولكنهم يصرّون أن يخفوه عن أنفسهم. إيماء مشوّش، غائم، يوسوس في الصدور، ويتمتم بهمس كوشوشة الريح قائلاً أن المسافر وحده موعود بدخول «واو»، المسافر وحده يستطيع أن يطمع بالعثور على القارة الضائعة، المسافر وحده يهدد في قلبه أمل الفوز بالواحة المفقودة، برغم أن المسافر لئيم بالسليقة، فيخفي الأمل بعيداً، ويحاول أن يقنع نفسه باللاّ أمل، لأنه يعرف أنه لو لم يخفِ الأمل عن نفسه، فسوف تغلبه نفسه ويخبر به أحداً، واذا تكلّم لسان بالسرّ بطُل السرّ وتحوّل الكنز، تحوّل التبر، رماداً. ولكن ركب المودعين ملّة لئيمة أيضاً، لأنهم يحدسون الخبر، ويقرأون النيّة في مقلة العين قبل أن يعرفوها في زلّة اللسان، فيحرقهم الوسواس، وتشتعل صدورهم بنار الحنين، ويعذّبهم الحسد، فيبكون ... يبكون لا حزناً للفراق، ولكنهم يبكون لأن مخلوقاً ضائعاً مثلهم، شقيّاً

مثلهم، لم يعرف يوماً من أين أتى، ولا إلى أين يذهب، مثلهم أيضاً، سيجد السبيل الذي لم يجدوه، وسيسوق المجهول إليه الواحة التي وعد بها أهل الصحراء منذ جاءوا إلى الصحراء، وسوف لن يعرف بعدها "شقاء الطب المميت، وستختفي من قلبه أوجاع الحنين، لأن النسيان الذي تدين به بواو، هو ترياق يداوي علل الدنيا، فينقلب ميزان الأشياء، ويصير المسافر الذي يهدّده الخلاء بالتّيه، مولوداً، وتصير ملّة المودّعين التي يعدها الاستقرار بالأمان، ملّة شقيّة، بائسة، مفقودة. وعندما يكون لا يكون حزناً على المسافر حتى لو كان أقرب الأقارب، لأنه مخلوق مفقود، ولكنهم يبكون على أنفسهم لأنهم هم الخلق المفقود، فينقلب المهاجر عدّواً حتى لو كان أصدق صديق، حتى لو كان أخاً، حتى لو كان أباً .

يطير الطير، في موسم الطير، فيرتدّ كل إمرء إلى نفسه، ليغالب حنينه المجهول، حنينه إلى المجهول الذي أتى منه يوماً محمولاً على جناح الطير، لأن الطير الذي جاء به إلى الصحراء طفلاً ملفوفاً في قماط النسيان، لن يستطيع أن يعيده إلى المجهول، إلى الوطن، بعد أن خرج من قماط النسيان .

(٣)

في الصباح وجد الصغار الطائر الجليل قابعاً فوق شعفة

أحد الأحبية. وجده الصغار بعد ان خرج الكبار لقضاء حوائج الكبار، فأحاطوا بالبيت، وتجادلوا في إيجاد طريقة للوصول إليه . جاء أحدهم بعصا طويلة وضرب بها زاوية الخباء ليفزع الضيف، ولكن الطائر المكابر استمرّ يتكوّم حول نفسه، يلقي برقبته الطويلة إلى الوراء، ويحمي رأسه بجناحية، فيتمدّد منقاره الأحمر في الفراغ، ويفتح عينه باسترخاء ليكشف عن مقلة مهمومة. تناول صبي طويل القامة، نحيل العود، حجراً ورماه باتجاه الطائر. تدحرج الحجر على بيت الشّعَر، وعبر إلى الناحية الأخرى، فصيحّ الصغار، ولوّحوا بقبضاتهم في وجه الصبي النحيل :

– هذا إثم. هذا كمن يضرب أمّه أو أباه. هل ترمي أُمّك بالحجر؟ لو رآك الكبار فستنال عقاباً .

فرّ من الجمع فتى يشطر رأسه بالشعر فيبدو كتاج الهدهد. قال :

– لا تقتربوا. هذا ضيفي، ألا ترون أنه لم يختر إلا بيتنا من بين كل البيوت؟. كنت أعرف أنه سيأتي، لأني رأيته في المنام ثلاث مرّات. وحمل لي بشارة! يقول الكبار أن الطير يجلب البشائر .

سخر الصبي الطويل، صاحب العود النحيل :

– بشارة؟ ألا ترى أنه عجوز؟ عجوز الطير يحمل النّحس لا البشارة .

- وكيف عرفت أنه عجوز يا وجه النحس ؟

- أنظر إليه. ألا تستطيع أن ترى انه عجوز ؟

- ربما أصابه التعب. لا تنسَ أنّه أقبل من بلد بعيد .

- لو لم يكن عجّوزاً لما تخلّف عن السرب .

- ربما أصابه مرض ، أو ناله جرح . أنا لا أرى ما يدلّ على انه عجوز . هل ترون ، يا صغار ، ما يدلّ على أنه عجوز؟

جعجع الصغار بالهرج، ولكن صوت الصبي النحيل علا مرة أخرى :

- الطائر عجوز، والطائر العجوز يجلب النحس. اطرد عجوز النحس بعيداً إذا أردت ألا يصيب بيتكم سوء .

إستبّد بصاحب التاج غضب. صاح :

- أنت تتكلّم بسبب الحسد. انت ولد شرّير وكريه لأن لسانك يتكلّم بالحسد .

ولكن الولد النحيل، بدأ يحجل على رجل واحدة، ويطوف حول الخباء، مردّداً تلك الأغنية القاسية التي توارثتها الأجيال، وقيل أن الأسلاف كانوا يتغنّون بها فوق رؤوس شيوخهم عندما يهرمون، فيرمون بهم في الحفر، ويتركوهم لمصيرهم :

وجّيع ثمضريت آجّيد آتدْ وَلَدْ

وجّيع تورنا آجّيد آتزّيدْ (*)

استجاب قسم من الصغار للنداء، فتغنّوا باللحن القاسي، وساروا وراء الصبي النحيل راقصين. وجمد القسم الآخر، وتنقلوا بأبصارهم بين أقرانهم الأشقياء، وبين قمة الخباء، حيث قبع الطائر، فتهيّأ لكثيرين أنه ينكمش ويتضاءل كلما استدّت هرجة الصغار، وعلت أصواتهم بالإيقاع الفاجع .

(٤)

انتصف النهار فتململ الطائر. تزحزح إلى أعلى شيراً، وفرد جناحه الأيمن، مصحوباً بالساق اليمنى، كمن يتمطّى، ثم فرد الجناح الأيسر، وتركه ممدوداً فوق الساق اليسرى برهة أخرى. انتصب. انتصب بقامة طويلة جداً. جسم هزيل محمول على ساقين أكثر هزالاً، منقار طويل ممدود إلى الأمام يفوق الساقين طولاً. سُمع في الجمْع صوت :

- هذا ليس ، ابيل، بيل.

انتهره صاحب البيت :

- كم بلغت من العمر حتى أوتيت علماً في أمم الطير ؟

(*) لست صغيراً حتى تنتظر أن تكبر

لست مريضاً حتى نتوقّع شفاءك

هتف صوت آخر :

- هو على حقّ. هذا طائر آخر، هذا طائر مجهول .

تدخّل الصبي النحيل، صاحب القامة الطويلة :

- سواء كان أبّيل - بيل أو طائر آخر، فإنّ اليقين أنه عجوز. والطائر العجوز يجلب للنجوع النّحس .

صفع الطائر الهواء بجناحيه. صفع الهواء باسترخاء، بيأس، ثم ترك الجناحين مشرّعين ومضة، وأطلق صوتاً غريباً، زعيقاً مكتوماً، قبل أن يرفرف ويحاول الطيران. ارتفع في الهواء أشباراً، ارتفع بتثاقل، وبطء، وخشونة لا تتناسب مع هزال جسمه. رفرف بتثاقل الدجاج، وبطء الدجاج، وخشونة الدجاج عندما يتحلّى بالبطولة، فيتمرّد على طبيعته، ويجرّب أن يتنصّل من أصله، ويطير ليصير أيضاً، من سكّان السماء .

إنطلق الطائر مسافة نحو وادي الرّتم. هوى. هوى إلى الحضيض كما يهوى الدجاج. هوى بخزي لا يليق بالطير. هوى، ولكنه لم يتوقف عن صفع الفراغ بجناحيه الكبيرين، الناصعين، الموسومين بالوهن والسواد، فلامس الأرض بساقيه، وحرث التراب بمخالبه مسافة طويلة .لاحقه الصغار، فجرى ، جرى جرياً قبيحاً يشبه جري الغربان. جرى كأنه يعرج بسبب الساق اليمنى، وبسبب الساق اليسرى أيضاً. اقترب منه الصبية فارتفع مرّة أخرى. ارتفع إلى أعلى أشباراً، وقطع إلى الامام

مسافة أشبار، قبل أن يسقط أرضاً. سقط سقطة مهينة، فاندس منقاره النبيل في التراب، وعندما انتزعه من الحضيض، من العار، وضرب به الفضاء لينفض عنه الغبار والذّلّ، رأى الصبيان في مقلتيه الكسولتين، المتعبتين، وميضاً، بللاً، دموعاً. قال صاحب العود النحيل بلسان لئيم :

- ألم أقل لكم بأنه عجوز؟

(٥)

تميل الشمس إلى الغروب فتتمدّد الظلال شرقاً، ويجود الشمال بأنفاسٍ نديّة، وتتراجع قلول الحرّ مع احتضار القيلولة، فيزحف الناس خارج الأخبية، ويلجأ الأكابر إلى ظلال البيوت ليتجادلوا ويتخاصموا ويتنعّموا بظلال العشية وانفاس الشمال .

الزعيم أيضاً لجأ إلى الظلّ خارج الخباء .

جلس على نطع قديم لحسه لسان الزمن وجرّده من الصوف، وبدأ يتسلّى. وضع في حِجْره قطعة من خبز الشعير، وشرع يفتّتها بين يديه ويلقي بالفتات إلى الطائر الذي مضى ينحني على الشتات، ويلتقط الفتات بفتور ولا مبالاة، كأنه يأكل لا لأنّه جائع، ولكن لأنه يريد أن يتسلّى أيضاً. تمتم الزعيم: أأنت عجوز حقّاً. أنت عجوز إلى حدّ أن شيخوختك لم تُخفْ حتى على الصغار. الزعيم خلّص العجوز من يد الأشقياء

منذ أيام. خرج من وادي الرّتم عند حلول الظهيرة. فوجد الطائر يركض ركضاً مضحكاً، ويرفرف باستماتة محاولاً أن يتحرّر من الأرض، من وزر الأرض، من سلطان الأرض، ولكن هيهات ! لأن المخلوقات عندما تهرم، المخلوقات عندما تشيخ ويصيبها الوهن والعجز، تكون الأرض في إنتظارها، تكون الأرض قدرها، تكون الأرض وطنها الأبدي، وطنها الأخير، حتى لو كانت هذه المخلوقات كائنات سماوّية. حتى لو كانت المخلوقات ملّة من ملل السماء كالطير! ولو لم تكن الأرض بهذا النّهم، لو لم تكن الأرض بهذا اللؤم، لو لم تكن الأرض بهذه الحكمة، لما استطاعت أن تجد على الأرض تراباً تخلق به خلقاً، لأن ماهو تراب الأرض إن لم يكن عظام الخلق واجداث الأموات صارت في القِدْمة طعاماً للأرض؟ كيف تستطيع هذه الأمّ الحكيمة أن تخلق مخلوقاً يسعى إذا لم تتغذّ؟ ألم يكوّن أهل الصحراء في القدم، جسد الصحراء؟ وهذه هي العلامة. الطائر الهرم هو العلامة. الكائن إذا شاخ ثقل على الأرض، لأنها تجذبه، تشدّه إليها، تقول له أن الميعاد إقترب، والأجل الذي قُدّر لك فيه أن تعود إلى جوفي قدحان، وقد أنعمت عليك بالغذاء ماطللت حيّاً، واليوم عليك أن تقترب وتتأهّب لتكون غذاءً لمن بعدك، فينتاب المخلوق فزع، ينتاب الطائر فزع لأنه يحسّ بوهن لم يعهده، وبقوّة خفيّة تجذبه إلى أسفل الأسافل، فيخونه الجناح، ويتخلّى

عنه الجسد، وتبتعد عنه السماء، لأنه لا يعرف أن السماء نفسها، وطنه السماء، يعجز أيضاً عن تبديل رمز واحد في ناموس القدر، فيسلّمه للقدر، والقدر يدفعه إلى الحضيض، لينفّذ المشيئة القاسية ويعيده إلى الأرض .

سمع الصغار يتحدّثون عن الشيخوخة، ردّدوا كلمة «آمغار». (*) أكثر من مرّة، فلم يعرف عما إذا كانوا يتحدّثون عن الطائر، أم عنه هو .

(٦)

أقبل العرّاف فتحدّثا، مرة أخرى، عن جمال الشيخوخة، والنبل الكامن في كلّ حزن .

تربّع العراف بجوار الزعيم. طارد السراب في الخلاء. تابعه حتى ابتلع الأفق وتحوّل ألسنةً من لهب شفّاف. تناول حصاة. رمى الحصاة نحو الطائر. ذهب كعادته، إلى غايته من أبعد أرض:

- لم أرَ طائراً يستأنس الخلق من أول يوم إلاّ هذا.

ألقى الزعيم بحفنة من فتات الشعير، ولكن الطائر إكتأب. إزداد كآبة. إنكمش حول نفسه، ورمق حبيبات الخبز بلا اكتراث. ثم أغمض عينيه واخفى راسه بين جناحيه. تكلّم الزعيم:

(*) آمغار: الشيخ، العجوز، الزعيم، الجدّ.

- استأنس مكرهاً، استأنس لأنه وحيد ، مهجور ، ضائع. ضائع مثلنا. ثم لا تنس أنه عجوز . السرّ في الشيخوخة.

الشيخوخة شيء قبيح. هل تحدّث الناموس عن شيء أقبح من الشيخوخة ؟

ابتسم العرّاف. طاف حول الموقع. حام حول الغاية، ولكنه استمرّ يجوس في أبعد أرض :

- اخشى ان تكون كلمة الناموس في الشيخوخة ضد كلمة مولاي .

- أعرف أنك ستقودني إلى المملكة القديمة لتحدّثني عن جمال الحزن مرّة أخرى. أم أنّي أخطأت ؟

- لم يخطئ مولاي. ولكن آرائي في الشيخوخة، وفي الحزن لم أستعرها من جراب الناموس وحده. الأسلاف أول من ترك لنا هذه الوصيّة. الأسلاف هم الذين قالوا أن حزن الشيخوخة نبل، ولا يوجد في الصحراء أجمل من إنسان حزين. ألم يستنكر مولاي قهقهات الدهماء؟ ألم يطرد مولاي من المجلس أبابا، منذ أيام عندما أفلتت منه ضحكة مسموعة؟ هل يفعل مولاي ذلك مراعاة لناموس الوقار، أم خوفاً من ناموس الحكمة؟

- ولكن ألا ترى ان الحزن الذي تتحدّث عنه هو ظلّ النهاية؟ ألا ترى فيه شبح الموت ؟

- لو لم يكن ظلاً للنهاية لما وجدنا فيه ظلاً لجمال. لو لم

يكن شبحاً للموت لما رأينا فيه شبحاً للنبل. السرّ دائماً في الموت.

- لماذا يتغنّى أهل الصحراء بالنهاية؟ لماذا ترك لنا الأسلاف ناموساً كاملاً في مديح الموت؟

- لأنهم، يا مولاي، جرّبوا أن لا شيء يستحق أن يُعبد كالموت. عبدوه لا لأنه حقيقة الصحراء الوحيدة، ولا لأنه الترياق الوحيد الذي تداووا به ضد علل الحنين وأوجاع الصحراء، ولكن السرّ، يا مولاي، في توقهم إلى السرّ. لأن الموت سرّ، وهم لم يتوقوا لشيء توقهم إلى السرّ .

رمى الزعيم بالفتات. نفض جحْره. تابع تدفّق السراب في الخلاء. قال :

- هل تريد أن تقول أنهم يعبدون الموت، يريدون الموت، لأنه سيكشف لهم سرّ الخفاء ؟

- هاهو مولاي يقترب من السرّ.

- ولكن ماذا يفيدهم أن يكتشفوا السرّ بعد فوات الأوان؟

- الحقيقة، يا مولاي، الحقيقة ! الحقيقة هي العزاء .

- ألا ترى أن من الغباء أن يطلب الإنسان موتاً ليتيقّن أن وراء الظلمة سيلاقي إلهاً؟

- هل تريد أن يقنعوا بالحياة في هذه الحدود الميّتة؟ أليس

ذلك أكثر بطولة من الحياة في حدود الصحراء الخرساء ؟

- أنا أريدهم أن يقنعوا بما وُهبوا. أنا أردتهم أن يقنعوا بالحياة في حدود الحياة .

- هل يرى مولاي حياة بدون حقيقة ؟

- ولماذا تلحّون في طلب الحقيقة في بلاد الخفاء ؟

- لأن، يا مولاي، لا حقيقة إلا هناك. لا حقيقة، يا مولاي، إلاّ في الخفاء.

- ما أقسى هذا !

تناول الزعيم حصاة. تمتم: «ما أقسى هذا ...» ، رمى الحصاة جانباً. قال :

- فلنعد إلى الطائر. سمعت الصغار يقولون أنه طائر لا ينتمي إلى قبيلة «أبيل - بيل».

نزل العرّاف المرتفع . اقترب من النبع . أخرج من عبّه مصائد لاقتناص الغاية:

- سواء كان الطائر «أبيل - بيل» أو طير آخر مشابه، فإنّ الطائر في عُرْفِ الناموس رسول .

سكت الزعيم، فمضى العرّاف في نصب الأفخاخ:

- شرع الطير أن يهاجر. واذا رفض الطير أن يهاجر فهذا فأل سيء يا مولاي !

لمعت عين الزعيم ببسمة. هل تبسّم الزعيم لأنه اكتشف

موقع الفخّ؟ هل ابتسم لأنه أدرك أن العرّاف لم يأتِ إلاّ ليواصل حوار الأمس عن ضرورة الهجرة ؟. قال :

- كيف تريده أن يهاجر إذا كان عجوزاً؟ كيف تريده أن يطير إذا كانت الأرض تشدّه إلى الأرض بالسلاسل، والجناح صار كسيراً ؟

- الطائر كائن مهاجر، والكائن المهاجر لابد أن يهاجر حتى ولو كان عجوزاً، لأنه سيخالف طبعه، وسيخالف ناموس الأشياء إذا لم يهاجر. الهجرة قدره يا مولاي .

- ولكن الشيخوخة تجعل البدن كسيحاً، وتزرع في الرأس بلادة، وتشدّ إلى الأرض بسلاسل الحديد، فكيف يستطيع الكائن المسكين أن يرتاد السماء، وينضمّ إلى قافلة السماء؟ إبحث له في ناموسك عن سبيل آخر، ولكن لا تطلب من المسكين أن يقف ضد إرادة أمّنا الصحراء .

اقترب العراف من الموقع خطوة أخرى. ضرب كفّاً بكف. قال:

- يا إله الصحراء ! هل يرى مولاي الطائر شائخاً إلى هذا الحدّ؟ ألا يرى مولاي أنه يرفض أن يطير لا عجزاً عن الطيران، ولكن لأنه يحمل إلى النجع نبوءة ؟

التقت نظراتهما. تقابلنا عند الموقع الخفيّ. حاما حول النبع الذي لا تبدأ ملل أهل العرافة سفراً إلاّ لتدركه. نبع غامض،

كتيب، يسمونه في لغتهم الغامضة: الإيماء .

رأى العراف أن الزعيم اكتشف الموقع. صاح :

- الشيخوخة وطن نبيل حقّاً يا مولاي، ولكنّها علّة لا تهدّد بدن مولاي أيضاً !

أشاح الزعيم بوجهه بعيداً. ابتسم. عاد إلى الخلاء. إلى لعبة السراب في الخلاء. ابتسم طويلاً. ابتسم لأنه اكتشف سرّ العراف. سرّ زيارة العرّاف. كان يعلم أن العراف لن يتأخر. كان يعرف أن العراف سيأتي رسولاً لمجمع الحكمة .كان يعلم أنهم لن يتركوا الأمر بسهولة. كان يعلم أنهم سيجيئونه فراداً وجموعاً، في العشيات وفي الأمسيات، كان يعلم أنهم لن يخالفوا له أمراً، ولكنه يعلم أيضاً أنهم لن يستسلموا بسهولة، خاصّة إذا تعلّق الأمر بأمرٍ أوصى به الناموس، خاصّة إذا تعلّق الأمر بأمر جبلوا عليه منذ أن وُلدوا حتى صار هم ديناً، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بالهجرة. لقد وجد هم المبرر، ورأى أنهم على حقّ في أن يستميتوا لتنفيذ مشيئة ورثوها عن أجدادهم، وقرأوها في نواميسهم، وجرت في دمائهم، فكانت هم حياة. ولكنه يعلم أيضاً أنهم لا يعلمون في أي أرض يقف، وفي أي صحراء وجد نفسه في السنوات الأخيرة، وماذا يعني أن يكتشف الإنسان بين يوم وليلة أن كل ما فعله في حياته ضائع، كل ما فعله في حياته ما كان يجب أن يفعله، وما لم يفعله لن يستطيع بعد اليوم أن

يفعله، لأن الزمان تبدّد بأسرع مما توقّع، وما كان يظنّه حياة، ما كان يعوّل عليه، قد انتهى قبل أن يبدأ، انتهى في الوقت الذي قرّر فيه أن يبدأ. بل قبل أن يقرّر أن يبدأ. يكتشف أن الحياة قد مضت في الساعة التي يتأهب فيها لكي يبدأ الحياة، ما يسمّيه أهل الباطل حياة. الآن يريدون منه أن يتزحزح كأيام الزمان القديم. يريدون منه أن يتزوّد من الأشعار بالحنين، ويتعلّق بالأفق الصارم، الغامض، اللامبالي، وينطلق. ينطلق نحو الأفق طلباً لما وراء الأفق. ينطلق نحو الأفق بحثاً عن الواحة الضائعة التي يعرف أنه لن يجدها. وعليه أن يأمل في وجودها إذا أراد أن يمضي في اللعبة لأن هذا هو دستور اللعبة. وكلما تكشّف الأفق عن فراغ، وعن مدى، وعن أفق أكثر قساوة، وأشد غموضاً، وأدهى في اللامبالاة، قاوم الغصّة، ولعن «وانتهيط » في السرّ وفي العلن، وتلهّى بأغاني الشحن، لأن المهاجر يكتفي بـ «واو» التي يجدها في الأشعار، إذا اكتشف أن لا وجود للواحة في الأرض. ولكن الشيخوخة تسخر من كل الخدع، وترى ما لم يره كل المهاجرين. ترى ما لا يراه العرّاف، ترى ما لم يره الناموس نفسه. هذا هو سرّ الشيخوخة، هذا هو سرّ الحزن الذي يقرأه العرّاف في عين الشيخ فيسمّيه جميلاً .

٣

الخروج

« يروق للطبيعة أن تخلق باستمرار، كما يروق لها أن تدمّر ما خلقت باستمرار، لأن الطبيعة غير مؤهلة لإبداع أيّ شيء يُعوَّل عليه » .

آرثور شوبنهاور

«العالم كإرادة ومظهر»

(١)

.. ولكنّهم يجهلون سرّه. ولكنّهم لا يعلمون لماذا يعاند الرقعة الوعرة كل يوم لينزل وادي الرّتم . لا يعلمون لماذا يعتزل هناك منذ الضُّحى حتى حلول الظهيرة. لا يعلمون لأنهم لم يسمعوا الأغنية، و لم يتلذّذوا بنشيد المجهول الذي يتخبّأ في أحراش شجرة الرتم. ولو علموا، لو سمعوا، لأدركوا أن الزعيم لن يرفض الإقلاع، لن يرفض أن يأمر القوم بالقيام، والإنفصال عن أمّهم الأرض، بسبب شيخوخة تشدّه إلى المكان، كما شدّت طائر السرب إلى أرض النجع. لو سمعوا لأدركوا أن الزعيم لن يخالف ناموس الأجيال حتى لو شدّه العجز بأقوى سلاسل الحديد. لو سمعوا لأدركوا أن في الأمر سرّ أكبر من الهرم، وأقوى من الشعور بالعجز، واعظم من خيبة الأمل التي يعيشها كل من بلغ من العمر عتيّاً، واكتشف أن السبيل الذي ابتلع الأجداد من قبل، هو نفس الهاوية، نفس الظلمة، نفس النسيان، الذي ينتظره.

سمعه أوّل مرّة بعد نزوحهم الوطن بأيام. نزل الوادي البكر، المفروش، في القيعان، بوشاح الرمل اللّميس، الموسوم بثنيات جذّابة، تذكّر بأول أيام الخلق، عندما خرج الجدّ من مملكته، ودرج في الخلاء أوّل مرّة. إلى هذا الفرش تسابقت أشجار الرّتم،

ولكن الحواشي الصخرية زاحمتها في المسافة التالية، وزرعت في المساحات الملاصقة للسفوح سيوفاً مكسوّة بحجارة، صقيلة، شذبتها سيول الدهر فتلامعت تحت شعاع الشمس، فلم تجد الأشجار مجالاً، فانكفأت حول نفسها، وتلاصقت، وأبدعت في العمق أحراشاً كثيفة تذكّر بالأدغال التي تصنعها أشجار النّخل في الواحات عندما تلتف حول عيون المياه، فتتضافر، وتتلاحم، وتتكاكأ، كأنها تخشى على العين من العين، كأنها تخفي العين عن الناس خوفاً على كنزها من الحَسَد. إلى شعاف هذه الأدغال يأوي الطير، يأوي الحمام، فيبني أوكاراً بديعة، يضع في الأوكار بيضاً، ويجثم على البيض، ليغنّي لحونه الرتيبة، عند حلول القيلولة.

في دغل الرتم أيضاً سمع أغنية الطائر .

لم تكن رتيبة أبداً كأغنيات الحمام. لم تكن ذات نسق وحيد كأغنيات الحمام. لم تكن مملّة كأغنيات الحمام .

في الأغنية يتنوّع الصوت، ويتعدّد الإيقاع، وتعلو الأنغام، وتتنزّل أنغام، ويشتدّ الأنين، ويصفو اللحن، يمتزج بولولة الريح في أعراف الرّتم، فيتغيّر الموّال، ثم يخفت النسيم، فيتراجع النحيب، ولكن الحلاوة الحزينة، ولكن الحزن الحلو، لا يتخلّى عن الأغنية، بل يزداد اللحن حزناً، فيزداد حلاوة ولذّة. يستقيظ في الصدر الجنّ، فيسمعون، ويتلذّذون، ويجدبون، ويطيرون به

عبر الزمان ليعيدوا له ما أخذه الزمان. لا يعيدون له الذكرى القاسية، المميتة التي تشعل في القلب ناراً، ولكنها لا تأتي أبداً بما مضى، ولكنهم يخطفونه إلى مكان لا وجود فيه للمكان، فيجد نفسه في زمان لا وجود فيه للزمان. مكان لم يصر مكاناً بعد، وزمان لم يتحوّل زماناً بعد، فيرى .. يرى ما حاول دائماً أن يراه، يرى ما أخفته عنه الصحراء، يرى ما سلبه منه الزمان، فيبكي .. يبكي كطفل، يبكي لأن الطفل وحده لا يجد عاراً في البكاء، يبكي لأنه إستعاد الطفولة الضائعة التي ظنّ أن الزمان، أن الشيخوخة، لن تعيدها إليه أبداً. يسكت الطائر، ولكنّه لا يعود إلى الوادي، إلى الصحراء، إلى المكان، إلى الزمان. يبقى في أرض الجنّ أمداً. يظلّ معلقاً في فراغ خالٍ من خصال الفراغ، محلّقاً في فضاء لا وجود فيه لخصائص الفضاء، هائماً في زمان لم يلد أحداً، لم يبتلع أحداً، لأنه زمان لم يُولد .

يسكت الطائر، فيتنزّل في الوادي السكون. السكون القديم، السكون الخفيّ، السكون المعادي، السكون المميت الذي يخبر، بلسانه الأخرس، ان الوطن الذي لم يعرف حدود المكان، و لم يعرف قيود الزمان، هو وطن الأحياء الوحيد، الوطن الذي يليق بالأحياء، بالحياة، لأنه وطن يقع خارج الحياة. فكيف لا يبكي مخلوق زار هذا الوطن يوماً، ثم وجد نفسه يرتدّ إلى القفص المطوّق بالوهن، والعجز، والشيخوخة؟ كيف لا يبكي

المخلوق الذي زار الوطن، وتعرّى له الخفاء، ثم وجد أمامه الخلاء الأبدي، الصارم، العاري، المغمور بذيول السراب ؟

(٢)

منذ أربعين عاماً أقبلوا عليه في المراعي البعيدة .

أقبلوا عليه بعد إنقطاعه بشهور .

أصابه داء الخواء الذي يُقال أنه لعنة ترافق الشعراء، فخرج إلى حدود الحمادة الغربية ليعتزل كما يفعل كل أهل الصحراء عندما يكتشفون، فجأة، أنّهم أُصيبوا بالدّاء الذي لا دواء له. ولكنهم لم يمهلوه. الأكابر لم يمهلوه، فأقبلوا عليه بعد غياب الزعيم بأيام. قالوا له أنه إبن أُخت الفقيد الوحيد، وعليه أن يتأهب لتولّي الزعامة. جادهم. يومها جادهم. كان يافعاً فجادهم. قال لهم أنه شاعر، قال لهم انه ليس شاعراً فحسب، ولكنه شاعر مُصاب. وعندما تساءل «أمّامًا» عن معنى كلمة «مصاب» أجابه ببلاهة قائلاً أنه مُصاب بداء أسمه الحزن، فتضاحكوا. تنكّروا للوقار وتضاحكوا، فسمع الأكابر يضحكون بصوت عالٍ لأول مرّة، فتعجّب أن يخالف الحكماء ناموسهم الخالد ويقهقهوا بسبب قول لم يرَ أنه يستحق أن يُضحك أحداً، ففكر أنهم ربما ضحكوا بسبب آخر، خفيّ، وليس بسبب الجواب .

ثم حشوا قبضاتهم في التراب إبعاداً لشر قد يأتي به الضحك، واستغفروا إله الصحراء ونذروا أن ينحروا شاةً عند العودة إلى المضارب، قرباناً يغسلهم من إثم الضحك. ثم .. ثم احكموا عمائمهم حول وجوههم، وأخفوا أنوفهم بعناية، واحتكموا إلى الناموس. قال «أمّامًا»:

– هل تريدنا أن نخالف ما لم يخالفه مخلوق في ملّتنا ؟

– للزعيم أبناء أكبر منّي عقلاً، وأكثر من كثيرين حكمة، فلماذا لا يرثون الزعامة عن ابيهم ؟

هتف «أساروف» :

– هل تريدنا أن نسلّم الطبل لأبناء زعيم مضى وترك في القبيلة إبن أخت؟ هل تريدنا أن نخالف ما أوصى به الأسلاف، وورثناه محفوراً في ألواح الناموس الضائع ؟

– ولكنّي شاعر. والشاعر لم يصلح للزعامة يوماً .

تدخّل «إيجابارن» لأول مرة. كان يحرث الأرض بسبابته طوال الحوار، ويرسم على التراب رموزاً بالأبجدية القديمة، ولكنه لم يتبيّن العبارة، لأن الشيخ الحكيم كان يمحو الرموز قبل أن تكتمل في عبارة. مضى ينحني على الرموز عندما قال :

– أن تتولى الزعامة لا يعني أن تتخلى عن قول الشعر يا مولاي !

نعم كان الحكيم «إيجابارن» أول من نطق اللفظ المقدس،

أول من وضع اللفافة الزرقاء على عمامته، والقى طبل الزعامة، طبل الحرب بين يديه، عندما نطق بكلمة لا تعنى في معجم اللغة شيئاً كبيراً، ولكنها هي الكلمة، وهي الكلمة الأخيرة، في قبائل الصحراء .

ساد الصمت. ولكن الحكيم مضى يحرث التراب برموز الأبجدية، ليمحو ما كتب قبل أن تكتمل العبارة، قبل أن تكتمل الكلمة .

سمع «أمّامًا» يقترح :

– نعم. حكيمنا لم يخطىء. تستطيع أن تقول الشّعْر سرّاً

– أقول الشّعْر سرّاً ؟

– نعم. تقول أشعارك سرّاً كما يفعل أكابر القبائل، وكما يفعل كل الزعماء .

– كما يفعل الزعماء ؟

– نعم. هل ظننْتَ أنّك الزعيم الوحيد في الصحراء الذي يروق له أن يتسلّى بقول الشّعْر؟ إعلم أن كل الزعماء، في الصحراء، شعراء .

– لم اسمع بزعيم قال شعراً .

– لم تسمع بزعيم قال أشعاراً لأنهم يقولون الشّعْر سراً كما قلت لك. يقولون الشّعْر سراً وينسبونه إلى الشاعرات أو الغرباء .

– ولكن هل بقي الشّعْر شعراً إذا قاله المرء سرّاً؟ هل يبقى الشّعْر شعراً إذا قاله المرء ونسبه لغيره؟

تكلمّ «إيجابّارن» مرّة أخرى :

– هكذا وجدنا آباءنا يفعلون يا مولاي!

انكفأ على التراب. غاب في رموزه. يحرث ويمحو ما حرث. يخط علامة ويمسح ما رسم، فيبدو غارقاً في دنياه، ولا وجود له بينهم. هذا ما جعله يحسّ بأن كلمة «مولاي» عندما تتلفظ بها شفتاه تبدو حاسمة، كأنّ المجهول هو الذي نطق بها.

(٣)

لم تمض سنوات حتى أقبلوا مرّة أخرى.

جرت في الوديان مياه سخيّة، وهوت في السماء شُهب كثيرة، وقال الشعراء في القبائل أشعاراً جديدة، بهيّة، وتغنت الصبايا بمواويل شجيّة، وهجع أكابر، وفقدت قبائل زعماء حكماء، فجاء الأكابر بأبناء أخوات الزعماء ليضعوا على رؤوسهم القطعة الزرقاء، ويقولوا لهم عبارة «مولاي» التي قيلت له في العراء يوماً قبل أن يُنصّب زعيماً على القبيلة، فأقبلوا مرّة أخرى، كما أقبلوا عليه في صحاري الحمادة الغربية يوماً. تقدّمهم «أمّامًا» كما تقدمهم ذلك اليوم، ولكن «إيجابّارن» الحكيم تخلّف، اليوم، عن الرّكب، لأن الحكيم القديم توقف عن زرع

رموزه في أرض الصحراء، ورقد في ضريح مهيب إلى جوار أجداده القدماء .

غاب الحكيم هذه المرة، ولكن «أساروف» سار إلى جوار «أمّامّا»، فرأى كيف يعلوا رأس أحدهما ويجتاز رأس قرينه بمسافة عمامة، ولكن رأس القرين الآخر يعود فيتفوّق، ويرتفع عن رفيقه بنفس المسافة، فتذكر أن هذا الوضع النبيل يسمّى في لغة الشّعْر «أميسرّاسن» *، عندما يتساوى القرناء في طول القامة، ويجعلهما الخطو المستمرّ يتفاوتان، كأنهما يتسابقان في الصعود إلى السماء .

أقبلوا مع العشية. لم يقبلوا عليه في خلاء الحمادة الغربية كما أقبلوا عليه يوماً، ولكنهم أقبلوا عليه في البيت الذي أختاروه في ذلك اليوم البعيد. أقبلوا عليه فأدرك، في الحال، لماذا أقبلوا. أدرك اليوم السرّ بعقل الزعيم، بعقل الزمان الذي تدفق مع السيول في الوديان، وتبدّد كسراب القيلولة ليبدّد معه الحياة. أدرك اليوم السرّ الذي لم يدركه يومها بحدس الشاعر، ذلك الحدس النبيل، الغضّ، اللذيذ، الذين جاءوا ليأخذوه منه في ذلك اليوم، فخنقوه في صدره إلى لأبد. خنقوا في قلبه الشعر، في ذلك اليوم المشئوم، فاختنق، وظلّ يحاول أن يتنفّس، أن يلتقط الهواء،

* «أميسرّاسن»: متفاوتان .

أن يستعيد طائره المفقود، فكان يشهق طوال هذا الزمان. يشهق بصوت فاجع، كمن ينتحب ويقاوم البكاء، لأن الإنسان إذا اختنق، و لم يجد سبيلاً ليلتقط الهواء، لا يملك غير البكاء. والرغبة الأبدية في أن يتنفس، في أن يستعيد طائره الضائع، هي التي جعلته ينسى المراسم التي رُسمت له ويغفل عن ناموس الزعامة، فارتكب خطيئة أخرى. خطيئة رأى الأكابر إنها لا تليق بالزعيم، فتنادوا، وتشاوروا، وقرّروا، فأقبلوا. كان يعرف ماذا سيقولون هذه المرّة. الزمان أخذ الحياة حقاً، ولكنّه منحه، بالمقابل، تميمة صغيرة أطلق عليها الناموس أسماء كثيرة: التجربة، العقل، الحكمة. بهذه التميمة يستطيع أن يقرأ النبوءة. نعم. سيقولون أن هذا لا يليق. سيقولون أن حياة الزعيم هي حياة القبيلة، ولا يليق بالزعيم أن يدخل بيته الشاعرة قرينةً بعد أن بلغ من العمر عتيّا. سيقولون أن قدر الزعيم هو أن يضحيّ حرصاً على مصير القبيلة، يضحي بالسعادة، كما ضحى بالعزلة، كما ضحى بالشعر يوماً. سيقولون أن الإنسان إذا دخل خباء الزعامة، فعليه أن ينسى الحب، كما نسي العزلة، كما نسي الشعر يوماً. في خباء الزعيم لا مكان لأيّ وهم، والحب وهم. الحب وهم كبير، الحُبّ أكبر وهم .

سيجادلهم. لن يسكت. سوف يجادلهم ببطولة. بطولة الرجل الوحيد، الرجل الأعزل، الذي وقع في كمين أعداء

مسلّحين بأشرس الحراب. سيقول لهم أنهم خنقوا فيه أنبل الأنسام يوماً. أماتوا في قلبه معشوقه الأوّل، وجاءوا اليوم، بعد مرور عشرات السنين، ليميتوا في قلبه عطيّة السماء، ليأخذوا منه العزاء الأخير، التعويذة الأخيرة، التي تهبها السماء قبل أن تأخذ من العابر كل شيء. في الماضي أخذوا منه كل شيء، فما ضرّهم، اليوم، لو تركوا له دميته الصغيرة، لو تركوا له قرينةً تقول الشعْر، إذا كانوا قد حرّموا عليه أن يقول الشعر؟ ما ضرّهم لو تركوا إلى جواره مخلوقاً وديعاً يغني له أشعاراً في أوقات الوحشة، مقابل تلك الأغاني التي سرقوها منه يوماً؟ ولكن .. هل يستطيع أن يقنعهم بهذه اللغة؟ هل يفيد منطق الطفل الذي أخذوا منه دميته في إقناع أهل العقل؟ هل يستطيع من ملأ قلبه بأقسى أقوال الناموس أن يفهم شاعراً منزوع اللّسان؟ هل يستطيع أبطال الحكمة، عتاة الآيات الصارمة، أن يفهموا لغة عاشق جريح؟

نعم .. يومها خانته الحُجّة أيضاً. يومها فشل أيضاً في إقناع التلّة الأبديّة، التلّة القاسية، التي لا تعترف بالشعر منذ أن استبدلته بأقوال الناموس، التلّة التي غابت عنها أسرار العشق منذ أن اعتنقت ديناً إسمه الحرص على مصير القبيلة، فاستنكروا عندما وجدوه يتحدّث لغةً ظنّوا أنه نساها منذ زمن بعيد. لغة قالوا إنها لا تليق بجلالة الزعيم، فهزموه. هزموه و لم يجد ما يفعله، عندما

خرجوا، إلاّ أن يشهق بالحسرة، أن يختنق بالفجيعة، لأن الفجيعة هي العزاء الذي تعوّد أن يتلهى به عندما يخلوا إلى نفسه منذ عشرات السنين .

(٤)

بعد الهزيمة كتب إلى المعشوقة رقعة قال فيها أن الزعامة لعنة لم يختزها، والقدر وحده، على ما يبدو، هو الذي قرر مصيره عندما جعله إبن أخت الزعيم الوحيد، و لم يكن يستطيع أن يتمرّد على إرادة الأكابر في ذلك اليوم البعيد، لأن ذلك لن يكون تمرّد ضد الأكابر ، ولكنه مخالفة يائسة لإرادة القدر . ولكن المرأة العاشقة لا تعترف بلغة المنطق، ولا تفهم سرّ الأقدار، وترى في الناموس حفنة من الكلام الميّت، حفنة من الكلام الميّت، حفنة من الكلام المميت. ولو كانت المعشوقة إمرأة فحسب لهان الأمر، ولكنّها إمرأة و .. شاعرة. شاعرة عاشقة أيضاً . فأي حجّة أرضيّة تستطيع أن تقنع شاعرة عاشقة؟ قبل أن تسافر وتهجر القبيلة إلى الأبد بعثت له رقعة أيضاً. رقعة غاضبة. رقعة قالت فيها إنها قررت أن تفعل ما كان يجب أن يفعله هو. قالت إن الإنقطاع في الخلوات النائية كان، في الماضي، قدر الرجال وحدهم، ولكن يبدو أن الحال تبدّل كما تبدّل كل شيء، فصار الرجال يدفعون النساء للإنقطاع، يدفعون النساء

للبطولة (لأن لا بطولة تفوق بطولة الانقطاع)، ويبقون هم محبوسين في البيوت. ثم .. جاءه خبرها. قالوا له إنها هاجرت. هاجرت إلى أرض مجهولة، فلم يرها أحد بعد ذلك .

أما هو فذهب إلى الخلاء ليدفن هزيمته هناك. ذهب إلى الخلاء ليقاوم الغصة القديمة، ليشهق بالفجيعة بدل أن يقول أشعاراً بهيّة، ويردّد أغنيات الأشجان. لأن طائر الأشعار طار وضاع، وصوت الغناء اختنق ومات .

(٥)

.. وهاهم يقبلون مرّة أخرى .

يقبلون كما أقبلوا قديماً في حدود الحمادة الغربية، يقبلون كما أقبلوا في مرّة ليأخذوا منه الشعر، وكما أقبلوا في مرّة أخرى، عندما أخذوا منه المعشوقة، عندما أخذوا منه الشاعرة، ليبقوه وحيداً، مهجوراً، لا أنيس له إلاّ العزلة والفجيعة والحياة التي بدّدها الزمان وصارت وهماً ككل الأوهام.

هاهم يقبلون اليوم أيضاً ليأخذوا شيئاً جديداً، فماذا تبقى ليؤخذ يا ترى؟ أم أنهم جمع خُلق ليأخذ، ولن يعدموا ما يمكن أن يؤخذ أبداً؟ نعم. نعم. لن يعدم الأكابر ما يمكن أن يؤخذ من بيت الزعيم. جاءوا اليوم ليأخذوا الطائر. ليأخذوا سرّه الذي أخفاه في دغل الرّتم، في أحراش الحرَم، في الوادي الذي حرّمه

على الدهماء عندما قال للرعاة والأتباع والعبيد: «من دخل وادي الرّتم، بعد اليوم، ضربت رقبته بالسيف ». فتجنّبه الجميع، ومُنعت عنه القطعان، وأوقف الفرسان على مشارفه عسساً. فعل ذلك إمعاناً في محو الأثر، إمعاناً في إخفاء السرّ الصغير. فهل اكتشف أهل الناموس هذا السرّ الصغير أيضاً ؟

هل يخلوا عليه بهذه الدمية أيضاً؟ هل أقبلوا ليأخذوا منه الطائر، الأغنية، السرّ، متسترين بضرورة الإقلاع، بناموس العبور؟

أقبلوا فخرج لملاقاتهم في العراء. هرع لاستقبالهم إجلالاً لـ «أمّامًا» نفس «أمّامًا» المعمّر، «أمّامًا» الخالد، الذي رافق أكابر اليوم الأول في الحمادة الغربية، ورافق الجمع في الحملة الثانية. اختفى كل الأكابر القدماء، أخذ الزمان «أساروف» في الحملة الثالثة، ولكن «أمّامًا» سار في المقدمة اليوم أيضاً. كان يتوكأ على عكاز أنيق من شجر الطلح، ويرتجف. يرتجف فيرتجف العكّاز أيضاً. عندما انتهوا من الحملة، وطلب أن يمهلوه أياماً فقط، قبل أن يشدّوا الرحال، أخذه «أمّامًا» على انفراد ليقول له: «لا تظن أني جئت خشية أن يُقال أن المُعمّر تأخر عن إقناع الزعيم بأمور الدنيا، لأنك تعلم أن من ترك الحياة وراء ظهره لن يضيره ما يُقال كثيراً، ولكني جئت لأن فأل السوء ليس أن يخالف الزعيم شرع جرى به الزمان ويرفض الهجرة، ولكن فأل السوء حقاً هو

أن يتأخر المُعمّر عن رفقة الأكابر إلى بيت الزعيم .. ثم ضحك بحزن وهو يهزّ العكاز أمامه ليقول مازحاً: ، جئتك اليوم بثلاثة أرجل، وأخشى أن أضطر في المرّة القادمة أن أستعير من الطّلح رِجْلاً رابعاً كي أصل إلىّ بيتك .

(٦)

في ذلك اليوم، في الساعات القليلة التي أعقبت خروج الطائر، في الزمن الصغير الذي أعقب إنطلاق الطائر من الأحراش، وإرتفاعه في الهواء، وإختفائه في متاهة الفضاء كما تختفي ذرّة الغبار في يمّ الفراغ، في ذلك الوقت الذي أحسّ فيه بالفراغ، بالوحشة، بهمّ فاق فجيعة السنين، فاق وجع العمر كلّه، فانطلق خارج الحَرَم. اجتاز أحراش الوادي، تسلّق السفوح الصخريّة الوعرة بحيويّة الفتيان، وصعد المرتفع المؤدي إلى المضارب. سار بخطوات واسعة، ناسياً أن الناموس رسم للزعيم أيضاً كيف يخطو، ناسياً أن الأسلاف لم ينسوا أن يضعوا القيد في قدمي الزعيم، ليعلّموه أن يحاكي الغرانيق في مشْيه. نسي الناموس، ونسي الأسلاف، لأنه نسي أنه زعيم. لم ينسَ، في ذلك اليوم، الزعامة فحسب، ولكنه نسي أنه يحمل في يده اليمنى طائراً آخر. يحمل في يده اليمنى الطائر العجوز الذي أقعدته الشيخوخة عن السفر، عن الالتحاق بالسرب الحميم. نسي أنه

لم يفقد في ذلك اليوم طائر الأحراش، طائر الغناء، طائر السرّ والبشارة، ولكنه فقد الطائر القديم، المكابر، اللامبالي، الذي صار له في الأيام الأخيرة أنيساً آخر. وحتى عندما قابل الأتباع، وأمرهم بأن يجمعوا له الأكابر، لم يلحظ دهشتهم، لم يلحظ كيف كانوا يسترقون النظر إلى يده اليمنى، ليتفحّصوا الطائر الميّت. وحتى عندما أقبل الحكماء، والتمّ الأكابر في الخباء، يتوسطهم ،أمّامًا، الخالد، لم يتخلّ عن الطائر الميّت. كان ما يزال يمسك بالساقين الطويلتين، ويهدْهد الجسم الهزيل، الذي زاده الموت هُزالاً وضآلة، حتى صار في حجم حفنة صغيرة من القشّ. تكلّم يومها فقال :

– خرج. خرج. لقد خرج. تستطيعون أن تبتهجوا، لأنه خرج.

تبادل الأكابر نظرات مشبوهة. نظرات عجب، ثم استنكار. لم يلحظوا الشحوب الذي زحف على وجنتي الزعيم، لأنهم كانوا يتابعون دبيب أصابعه الطويلة، النحيلة، على بدن الطائر، على ريش الطائر. تجاسر العرّاف، فتساءل :

– ولكن من الذي خرج يا مولاي ؟

لم يجب على السؤال. استمرّ يمسّد الريش بحنان أمّ تمشّط شعر ابنتها العذراء ليلة القِران. تنقّلت مقلتاه بينهم، تنقّلت بوجْد من خطفه الغناء، فرأى مالا يرى، فرأى ما تاق لأن يراه منذ

أبعد الأزمان. لم يرهم. كلّهم تيقّنوا أنه لا يراهم. قال :

– تستطيعون أن تتأهبوا، تستطيعون أن تشدّوا الآفاق منذ الغدّ. تستطيعون أن تفرّوا، ولكن اعلموا أنكم لن تستطيعوا أن تفرّوا من أنفسكم. أنا أعرف أنكم تريدون أن تفرّوا من أنفسكم، ولكنكم تعلّقون ذلك في رقبة الناموس لأنكم جبناء. نعم. أنتم جبناء. ها ها ها ..

ضحك. ضحك الزعيم. أطلق ضحكة عالية، حقيقية، مُنْكرة .

لم يضحك فحسب، ولكنه استعار لسان الهمهماء وأهان المجلس. نعتهم بالجبن واستهان بالناموس. فهل من يجلس قبالتهم، الآن هو الزعيم الذي عرفوه، أم الجنّ استطاعوا أن يستولوا عليه، هنالك، في الحرَم، في وادي الرتم، ليستبدلوه بمخلوق آخر، كريه، من مِلّتهم ؟

تكلّم العرّاف :

– أنت محموم يا مولاي. أهون للمحموم أن يهجع .

تكلّم البطل، تكلّم ، أهلوم :

– لقد أصابت مولاي علّة. يستحسن أن نرسل في طلب العطّار .

ولكن حكيماً صارماً هدّده بسباته :

– بل أصابه مسّ. لا يتكلّم بهذا اللسان إلاّ ممسوس، فابعثوا في

طلب الساحر، لا العطّار .

هأهأ الزعيم بضحكة أخرى. ضحكة استخفاف، ثم احتضن الطائر الميّت، وقال:

– ما فائدة هذا كلّه إذا كنّا سنسافر غداً، وربّما اليوم؟ ألم تقولوا أن السفر ترياق لكل داء؟ هيّا. استعدّوا. بل قوموا وشدّوا الرحال الآن .. الآن .. الآن .. هيء هيء هيء ..

تنزّل على المجلس صمت. صمت قديم، صمت خفيّ، صمت لا مبالٍ، صمت معادٍ .

في الصباح خرج العرّاف إلى القبيلة ونطق بالعبارة التي خافوها دائماً، العبارة التي تجنّبوها كما لم يتجنّبوا النار، كما لم يتجنبوا الغزاة، كما لم يتجنّبوا الوباء: «آمغار يزّارنغين»*

فأجهش الصغار والنساء وضعاف النفوس. أمّا الحكماء فاستسلموا للواحة القديمة، للصمت القديم، الصمت الصارم، المعادي، اللامبالي .

* الزعيم سبقنا.

٤

الإكليل*

« ما هو الحب؟ أليس هو ذلك الشيء الموجع الذي يجعل من الأصدقاء أعداء »

فيكرام سيث

« الفتى المناسب »

* تؤكد الأحيال أن هذه السيرة حدثت قبل أن تستقرّ القبيلة، وقبل أن يصير ها ضريح الزعيم وتداً يشدّها إلى الأرض، برغم أن رواة رأوا أنها سيرة يمكن أن تحدث في أي زمان، ويمكن أن نشهد وقائعها في ربوع أي قبيلة يقف على رأسها زعيم، ويقف إلى جوار الزعيم عرّاف .

(١)

الحزمة الأولى كانت محبوكة كحدائل الصبايا .

أقبل على خبائها قبيل الغروب، ووضع الحزمة الجليلة في حِجْرها. انحنت لتتفقّد الجدائل السّخيّة، فتنفّس الزهْر الخفيّ في وجهها. لمحت الأعراف النحيلة (التي يشبّهها الشبّان بخصلات العذارى، ويتجنّبون تسميتها أعرافاً) تتشابك في إلتحام حميم. تلتفّ خصلتان جانبيتان مكلّلتان بالزّهر الأبيض، البتول، الخماسيّ، حول خصلة تستقيم في الوسط، مكلّلة أيضاً بالزّهر الأبيض، البتول، الخماسيّ، كما يتلوّى ثعبان الأدغال على جذع الطّلحة؛ فيتلوّى الجذع أيضاً حول جرْم الثعبان كما يقول حكماء تلك القبائل. عود الوسط، المكلّل بزهرات لا تُكادُ تُرى، يكتسب مرونة خصلات الشّعر، ليلتفّ حول بدن الخصلتين الجانبيتين، فتتغيّب الأحرام النحيلة في الإلتحام الحميم، ولا يتبدّى من القِران سوى نثار زهرٍ ناعمٍ، لمّيسٍ، يوحي بكيان مخلوقٍ مغلوب. يستدير الكيان في إنحناءة قوسٍ مزموم، فيلتقي بشقّ يماثله في صرامة الحبكة، ودقّة الحِرْفة، والرغبة الجنونيّة الغامضة في خنق السّاق، في إخفاء العود، في محو الخصلات الثلاث، حتى لا يبقى في الجديلة غير زهور الرّتم، ويصنع لقاء الجديلتين قلادة نبيلة من خرز أبيض .

لم يكتفِ المبدع بخلق قلادة واحدة، ولكنه قدّم للحسناء في تلك العشيّة حزمةً كاملة. تنفّست الحسناء الزهر المكوّم في حجرها، وتبسّمت. تبسّمت بسمة لم يعهدها السّحرة إلاّ في خلْق أطال التحديث في الأبدية (كما يسمّون المعتزلة)، ورفعت أناملها في الفراغ، فرأى العاشق صف أسنانها السفلي، وضحكت. أطلقت ضحكة غريبة. ثم عطست مرّتين.

(٢)

نزل نجع القبيلة منذ شهور، تردّد على أمشيات الصبايا تحت ضوء القمر ليال. ولكنه لم يتدحرج على الأرض، ولم يخطفه حان الوحْد. كان يتربّع في الخلاء، فيبدو في جلسته المعتزلة وحيداً ككل الغرباء، مهيّباً كأكابر الجنّ. ولكن نفراً من أبناء القبيلة أكّدوا أنهم شاهدوه وهو يتمايل طرباً، ويطلق أصواتاً مبهمة ما أن يتمادى الوتر الوحيد في إمزاد، ويستلهم حلاوة اللّحون من كواكب السماوات، ومن ممالك المجهول. ولكن اليقين أيضاً أن الجنّ لم يخطفه في حضرة الصبايا، ولم يقع في الوحد كبقية الأقران.

فجأة انقطع عن أماسي البدر.

انقطع عن الأمسيات وظهر في المراعي. رافق رعيان الوديان السفليّة طويلاً فاقتفى أهل الفضول أثره إلى هناك أيضاً،

وعادوا إلى المضارب ليقولوا أنّهم سمعوه يغنّي ألحاناً مجهولة تشبه همهمات الجنّ في مغاور الجبال الزّرق، فأعجزهم الصوت عن تمييز اللّحون، ولم يفهموا في أغانيه كلمة واحدة. استجوبوا الرعاة عن مسلك الغريب، فقالوا أنه لا يغنّي في مجالس اللّيل، ولا يتكلّم أيضاً. وعندما طلبوا منه أن يشارك في أغاني الليل قال أن للغرباء ناموس آخر، وأغانٍ أخرى. كان الرعاة أكثر خلق الصحراء خبرةً بمسلك الأغراب، فتركوه، ثم تجنّبوه.

عاد إلى القبيلة.

عاد إلى القبيلة فاكتشف أهل الفضول اهتمامه بالشاعرة.

(٣)

آخرون قالوا أن الإهتمام ابتدأ قبل سفره إلى المراعي، لأن إلتجاء أهل العشق إلى خلوة المرعى صار ناموساً منذ هرع إلى الخلاء كل من أصابه الزمان بالطعنة المعروفة في ناموس العشق بـ «ضربة المخلب» (وهو تعبير مستعار من معجم السّحر قبل أن يبتدعه أهل العشق وينسبوه إلى أنفسهم)، والانضمام إلى الرعيان، كان دائماً مجرّد مبرّر للنسيان، ومحاولة سبقة إليها كل من تلقى الطعن، وأصيب بالعلّة الوحيدة التي أعجزت السحرة: الحُبّ! في حين أكّد فريق آخر أن علّة الغريب لم تبدأ إلاّ بعد عودته من الوطن الذي اعتاد أهل الحُبّ أن يدفنوا فيه داءهم

المميت. ولكن الجميع يعلم أن الأغراب أمّة غامضة إلى أبعد حدّ، كما يعلم الجميع أيضاً أن سرّ الغريب لن يكون سرّا حقيقياً إذا لم تكشف معدنه علّة الحُبّ .

غريب القبيلة أيضاً كان يحمل سرّا كما يليق بكل غريب، ولكن كثيرين رأوا أن سرّه الحقيقي لم يبدأ قبل إهتمامه بالشاعرة، فلمّحوا مراراً إلى أن الحبّ، في الحقّ، كان سرّه الوحيد.

القدر رتّب أوّل لقاء في ميعاد الليالي. تألق البدر في الأعالي، وتدفّق في الخلاء ضياء آخر. رفرف في الصدر طائر، وحنّ القوم للوصول إلى وطن الحنين. حنّوا فغنّوا. لأن الغناء هو الجناح الوحيد الذي يستطيع أن يبلغ ساحة الوطن، ويدخل مملكة المُلك الضائع. غنّت الشاعرة بصوت الحنين القديم، فتململ الطائر في القفص، ولكنه لم يفلت. ردّدت الحناجر اللحن وراء الشاعرة، ولكن الطائر رفرف أكثر، وهفا إلى الإنطلاق في الفضاء. فرّ مِنْ العيون دمع، وضاقت الصدور بحزنٍ خفيّ، فحاول أهل السّر أن ينفّسوا فأطلقوا الصيحات. صاحوا حتى بُحّت حناجرهم، ثم حجلوا، ورقصوا، وركضوا في العراء، ولكن همّ الطائر الحبيس غلبهم فضربوا رؤوسهم بالحجارة، ونزفت جباههم دماً سخيّاً. زحفوا على الرّكب، وتلوّوا على الأرض كالمجانين، و لم يدركهم الوجد إلاّ بعد سفر موجع .

بعد انتهاء الحفل رافق الغريب شاعرة القبيلة إلى خبائها .

بعدها شوهدا كثيراً وهما يتسكّعان في الخلاء، وفي الوديان المجاورة للنجوع .

(٤)

وضعت الحزمة في زاوية الخباء، وعلّقت في الركيزة قلاّدة سخيّة. كانت تعطس، وتسعل، وتغالب الدّوار والصّداع. رقدت تحت الرّكيزة، فتدلّت فوق رأسها الجديلة. تدلّت ولامست أنفها. أغمضت عينيها وطافت على شفتيها بسمة. نفس البسمة الغامضة التي يقول سحرة القبيلة إنها امتياز وُهب لمن عرف كيف يتقن التحديق في الأبديّة .

بعد قليل غزت الوجه حمرة، ثم شحوب. أحسّت باختناق، فشهقت بحثاً عن هواء. رفعت أناملها النحيلة في الفراغ كما فعلت عندما تلقّت العطيّة، ولكن الكف هوت وسقطت أرضاً. زحفت خارج الخباء، وبدأت تتقيّأ بصوت عالٍ.

(٥)

أقبل لزيارتها في مساء اليوم التالي. أقبل حاملاً حزمة جديدة من الجدائل. وضعها في حِجرها وتربّع بعيداً. تحدّث عن نوايا الصحراء، ومزاج القبْلي، ولكنه تجنّب التحدّث عن

الأشعار. غالبت الغثيان والدوار، واختنقت فيها الأنفاس، ولكنها مضت تداعب بتلات الزّهرة الخفيّة بأناملها، وتكتم في صدرها سعالاً جنونيّاً. إنصرف الزائر فوضعت الحزمة الجديدة فوق الحزمة المكوّمة في زاوية الخباء. في الركيزة علّقت قلادة جديدة أيضاً فغزاها شذى الرّتم. إنهارت. ركعت تحت الركيزة وأحست بالشلل يستولي على البدن كلّه. استنجدت بالعبد. طلبت منه أن يذهب لاستدعاء العرّافة .

العرّافة أوقدت ناراً. ألقت في النّار بحفنة من الشّيح وقطعة أخرى شاحبة، كريهة الرائحة، قالت إنها عقار نافع لمداواة علل الخفاء. وعندما رأت استفهاماً في عيني الحسناء أوضحت:

. لقد شممتِ عرق الجنّ. ينبغي أن تكفّي عن التسكّع في الخلاء عند حلول الغسق .

(٦)

لا حفنة الشيح، ولا القطعة الشاحبة ذات الرائحة الكريهة، نجحت في استئصال الدّاء. بل الصداع اشتدّ، واشتعل البدن بالحمّى، وظهرت على الجسم دمامل غريبة، فصارت تهذي، وتغنّي، وتذبل .

هرعت إلى حبائها القرينات، وجلسن فوق رأسها. أُستدعي العرّاف أخيراً، فأقبل على الخباء مخلوق نحيل البُنْية، طويل القامة، يلّف رأسه بلثام كثيف، ويملأ قبضته بحفنة من

الحصى. جلس في مدخل الخباء، وشرع ينقل حبّات الحصى من القبضة اليمنى، إلى القبضة اليسرى، ثم إلى القبضة اليمنى من جديد. وقد لاحظت كوكبة الصبايا كيف ينحني على الأرض ما أن تسقط حبّة حصى، ينحني بإهتمام من أضاع كنزاً، ويفتّش التراب، ولا يهنأ قبل أن يعثر على الحصاة، حتّى أن الحاضرات أكّدن أن الأمر لا يخلو من سرّ، وما حفنة الحصى إلاّ تميمة خفيّة من تمائم أهل السحر .

تكلّم العرّاف بعد سكوت دام طويلاً. شدّد قبضته على حفنة الحصى ثم أمر :

- إحرقوا الرّتم !

لم يفهم أحد. تبادلت القرينات نظراً. اختلس العبد إلى العرّاف نظراً ساخراً. ولكن العرّاف أمر من جديد :

- إحرقوا الرّتم !

تحوّلت نظرات الاستفهام إلى دهشة حقيقة، واحتار الجميع كيف يمكن أن تُحرق هذه الجدائل البديعة المحبوكة من زهور الرّتم. كانت زهرة الرّتم بهجة الصحراء، ووردة القبائل كلّها. يتنسّم أهل العزلة في شذاها أنفاس الواحة المفقودة، وتتغسّل العذارى بمائها ليلة القِران، وتُقام الأفراح ابتهاجاً بميلادها في أوائل أيام الربيع، وتتغنّى بجمالها أشعار الشاعرات، ويتكلّم بهائها الأبطال والفرسان. فما الذي أصاب عرّاف القبيلة حتى

يظنّ بها سوءً، ويأمر بحرق هذا الجسم المقدّس؟ همّ أحد العبيد بإخراج الحِزَم المكوّمة في الزاوية ففزّت الفتاة من فراش المرض، وانتهرته بسبّابتها. تراجع إلى الوراء، فقال العرّاف :

– إذا أردت الشفاءَ فأمُري عبيدك بحرق الرّتم، وابعثِ بمن يستطيع أن يأتيني بخرقة من لباس الغريب !

ظلّ الشّك يحوم في العيون. شلّ سبّبته أقوال العرافين دائماً. العرّاف لايكرر قولاً ولا وصيّة. العرّاف لا يكون عرّافاً إذا لم يبتدع قولاً لم يقله أحد. العرّاف لا بد أن يقول قولاً منكراً .

وضع حفنة الحصى في جيبه. نهض وأخرج أكوام الرّتم بنفسه. تركها في الخارج وعاد إلى الركيزة. ولكن العاشقة سبقته إلى الركيزة. خطفت جديلة وأخفتها في ثنايا ثوبها الفضفاض. ترنّحت فأسندتها إحدى القرينات. هجعت في فراشها وتبسّمت بغموض.

أشعل العرّاف ناراً، وأطعم النار زهور الرّتم. قال بقساوة تليق بعرّاف:

– إذا لم تأتوني بخرقة من لباس الغريب، فإن الصبيّة سوف تموت !

(٧)

ما حيّر القبيلة حقاً هو إنها سخّرت الرجال والنساء ليلتها

ليأتوا العرّاف بخرقة من لباس الغريب، فلم يعثروا له لا على خرقة ولا على لباس. استغفلوه ودخلوا بيته، تفقّدوا الوديان المجاورة التي اعتاد أن ينزهها ليصنع لمعشوقته جدائل الرّتم، بعثوا بفارس إلى المراعي البعيدة، وبرسول آخر إلى مغاور الجبال الزّرق التي اتخذها مأوى في الشتاء الأخير. ولكنهم لم يجدوا في البيت لباساً، ولا قطعة كتّان، ولم يعثروا في الوديان على مكان يمكن أن يخفي فيه شيئاً، وعاد الفارس من المراعي خائباً، ووصل من الجنوب رسول الجبال ليقول أنه لم يعثر في الكهوف إلاّ على رسوم الأولين. أيقن العقلاء أنه ساحر، وردّدوا لبعضهم وصيّة الناموس القديم القائلة: ,في قلب كل غريب ينام سرّ. لا يتغرّب ابن الصحراء بلا سبب» .

في الخباء بدأت الحسناء تحتضر. اشتدّت الحمّى، وفقدت القدرة على إلتقاط النَّفَس. في قلب الليل أضاعت أنفس عطيّة في الحياة: النَّفَس. بدأت تبتعد، وتبتعد.

ابتعدت كثيراً دون أن تفارق بسمة الغموض شفتيها .

القرينات قُلن إنها ماتت كأسعد مخلوق !

(٨)

تجمّع الخلْق في مدخل خبائها. أقبل الزعيم. داهم الجمع فأفسح له الدهْماء السبيل. انشطر الجمع إلى صفّين. تقدّم حتى

توقف أمام العرّاف .

قال غاضباً :

- ما معنى هذا ؟

لم يتكلّم العرّاف. طأطأ وابتسم. أعاد الزعيم سؤاله بنفس اللهجة، فأخذه العرّاف من يده، وابتعد به مسافة في العراء. قال العرّاف :

- لست أنا يا مولاي من أعطى الإذن لغريب ليتمتّع بالمقام في ربوع القبيلة !

صاح الزعيم :

- هل تريد أن تقول القبائل أنّي خالفت الكتاب المفقود، وطردت غريباً جاء يطلب الأمان؟ نعم. لقد أذنت لغريب بالمقام في القبيلة، ولكنّي لم أعطِ إذناً لساحر !

قال العرّاف ببرود :

- لم يكن ساحراً يا مولاي .

- كل القبيلة تقول أنه ساحر. لو لم يكن ساحراً فكيف استطاع أن يخطف الصبية بزهور الرّتم المقدّس ؟

- في الأدغال تسكن قبائل إذا أحبّ فيهم شابٌّ فتاة قتلها!

- قتلها ؟!

- وإذا أحبّت الفتاة شاباً دسّت له في الطعام سُمّاً !

- لا أنكر أنّك أعلم الجميع بقبائل الأدغال، ولكني لم أسمع بأمر هذه القبيلة الفظيعة قبل اليوم !

- هناك يرون أن العاشق لا ينال معشوقاً إلاّ إذا أزاله من الصحراء !

- مجوس. هذه ديانة المجوس !

- غريبنا أحبّ فتاتنا حقّاً فأخذها !

- أخذها ؟

- نعم. هذه لغتهم. يقولون أخذها إذا أماتها .

صمت لحظة ثم أكمل :

- ولو أدركتموني بخرقة من لباسه لعرفت كيف أمنع فعله القبيح. ولكن الدّاهية يعرف هذه الحيلة، فحرص ألاّ يترك أثراً للباس منذ أول يوم .

- أطلقت الفرسان في أثره. سيأتي به الفرسان مقيّداً بحبال المسد .

- لن يأتي به الفرسان .

- لماذا تتكلّم باليقين ؟

- أعرف هذه الملّة. إنهم لا يُدركون أبداً .

- هل هو غريب من بلاد الإنس، أم جنّ من قبائل الخفاء؟

سكت العرّاف، ثم ابتسم بغموض. دحرج بنعله حجراً.

قال بصوت كالهمس :

- ولكنه سيعود .

حدجه الزعيم قبل أن يتساءل :

- أراك تتكلّم يقيناً .

أومأ العرّاف برأسه، و لم يجب، فتكلّم الزعيم :

- هل قرأت النّبأ في عظام القرابين ؟

هزّ العرّاف عمامته نفياً. في عينيه المطفأتين لمح الزعيم حُزناً غامضاً .

دحرج بنعله حجراً أيضاً، فبدا كأنّه يحاكي حركة العرّاف. انحنت الشمس لتقبّل الأفق الصارم الممتدّ كجرم قوس مزموم، فسكبت في الخلاء ألقاً أرجوانياً سخيّاً. تابع العرّاف الألق وهو يتدّفق ويغسل الحصى والعلّيق والحجارة. قال :

- اعترف لك يا مولاي: كنت أعرف أنه سيفعل ذلك .

دحرج الزعيم حجراً جديداً. توقف. حدّق في الفراغ ومضة. مضى يتمشّى من جديد. تكلّم العرّاف :

- لقد سمعته يا مولاي يقول: ينبغي أن نتخلّى عن الأشياء التي نحبّها أكثر مما ينبغي !

توقف الزعيم. ردّد بانتشاء المحاذيب :

- ينبغي أن نتخلّى عن الأشياء التي نحبّها أكثر مما ينبغي..

سكتت. تواصل سكوته في سكوت الصحراء ، فبدا كأنّ

الخلاء رأى أن يسكت ويتصنّت أيضاً .

في عيني الزعيم رأى العرّاف سكينة الزعيم. سكينة الحكيم. سكينة أهل العزلة. لم تكن تلك سكينة. إنها شيء أنبل. إنها طفولة. نعم. لا يكون الزعيم زعيماً إذا لم تفضح عيناه طفولةً. لا يكون الحكيم حكيماً إذا لم تفضح عيناه طفولة. لا يكون المعتزل جديراً بلقب معتزل ما لم تفضح عيناه طفولة. الطفولة هي الواحة التي أضعناها. الطفولة هي الواحة التي نبحث عنها. لاخير في عين خلت من طفولة. لاثقة في مخلوق لا تجد في عينيه طفولةً .

أعاد الزعيم كأنه يغنّي :

- ينبغي أن نتخلى عن الأشياء التي نحبّها أكثر مما ينبغي .. ما أقسى هذا !

مضى خطوات. شبك يديه وراء ظهره كما يفعل الرّاجل الذي انتوى أن يقطع مسافة طويلة مشيّاً على الأقدام. قال بصوت آخر :

- أتدري؟ كنت أحاول دائماً أن أقول قولاً كهذا ..

اعترف العرّاف :

- حاولت أيضاً، ولكنّنا لا نسمع ما نريد قوله إلاّ عندما يقوله الآخرون نيابةً عنّا. هذا سرّ الحكمة يا مولاي !

- صدقت .

حدجه العرّاف فوجد في عينيه بللاً كالدّمع .

(٩)

سالت وديان كثيرة في صحراء الشمال، وتعشّق فرسان كثيرون عذارى كثيرة قبل أن تسيل الوديان، وقالت الشاعرات قصائد أجمل عن الحبّ والحرب والعار.

واكتشفت القبيلة أنّها أقامت في المكان أكثر مما ينبغي، وارتأى الحكماء أن يتركوا الأرض لتصير دِمناً، فأمروا بقرع طبول الهجرة إلى الشمال .

في نفس الليلة التي قُرعت الطبول أطلق النذير النداء، فعرف الناس أمر الضريح. أقبلوا على المقبرة في سفح الرّابية، فوجدوا قبر الحسناء خالياً .

أقبل الزعيم فوجد العرّاف في انتظاره. تبادلا نظرة خفيّة تحت ضياء البدر، ثم إنطلقا في العراء كأنهما كانا على ميعاد. لم يتكلّما. لم يتكلّما حتى انقطع هرج الدهماء، وأيقنا أن الصحراء قد أصاخت السمع وبدأت تتصنّت. بدأ العرّاف :

– ألم أقل لك أنه سيعود؟

– نعم. اختفى في ذلك اليوم كأنه من أهل الخفاء، وعاد اليوم كأنه من أهل الخفاء !

– أنت لا تدري يا مولاي أنّه كان ينتظر ..

– ينتظر ؟

– نعم. انتظر أن ينال التّراب من عطيّة التّراب نصيبه !

– الحقّ أني لم أفهم ..

– أنتظر أن يأكل التراب اللّحم، ويترك له العظم ..

– وما الذي سيفعله الشقيّ بالعظام وهي رميم ؟

لم يجب العرّاف. لم يتوقّف .. لم يدحرج الحجارة بنعله. مضى يخطو إلى الأمام، كأنه قرّر أن يقطع الصحراء مشياً، أن يهاجر، أن يتخلّى. قال :

– سيصنع منها تمائم. تميمة في الرقبة. تميمة في ثُنيّة اللثام. تميمة في المعصم الأيسر. تميمة في المعصم الأيمن. تميمة على رأس السرج. التميمة إيماء، والإيماء لغة كل عاشق .

– هل قلت الإيماء ؟

أسرع العرّاف في خطوهِ دون أن يدري. العرّاف يعرف أن الصحراء إغواء. العرّاف يعرف أن الصحراء تستدرج. العرّاف يعرف أن الخروج إلى الصحراء سفر، لأن القارّة العارية لا تستضيف من خرج للتسكّع. لأنها لا تعترف بناموس غير السّفر. سبق الزعيم مسافة .

قال لاهثاً :

– العاشق أعلم النّاس ببؤس المصير يا مولاي، وهو يعرف أنه لن ينال شيئاً أبداً، ولكن ما يهمّه هو الإيماء. والتميمة هي الإيماء

الوحيد يا مولاي !

هرول الزعيم أيضاً. هرول بسرعة لا تليق بزعيم. لا تليق بحكيم، ولكنه وجد حرجاً في استبطاء العرّاف بنداء .

ابتعد العرّاف. تباعدت بينهما المسافة. ولكن الزعيم هرجل وراءه بعناد.

برطم بصوت غريب :

– الإيماء. ما يهم هو الإيماء ..

تفقّد الأفق المغمور بضوء كالنهار، فوجد أن العرّاف قد سبقه كثيراً. قال لنفسه بصوت مسموع :

– ينبغي أن نتخلّى عن الأشياء التي نحبّها أكثر مما ينبغي .. ما أقسى هذا، ما أجمل هذا !

تردّدت العبارة في الخلاء، فسمعها مرّة أخرى كصدى لنداءٍ مجهول .

٥

الخليفة

... إنه كمشاهد، معزول عن الجميع، ولكنّه يتابع المسرحية حقيقةً.

الأوبانيشاد

(١)

اليوم أقبلوا أيضاً .

أقبلوا اليوم كما تعوّدوا أن يقبلوا دائماً. يتقدّمهم ،أمّامًا، بعكّازة الصقيل، يسير بجواره العرّاف كما أعتاد أن يسير. أقبلوا ملفوفين في اللباس الفضفاض، اللباس الناصع، الموسوم بعلامة المناسبات، بالقطع الزرقاء؛ قطعة فوق اللثام، وأخرى حول المنكبين. أقبلوا كما اعتادوا ان يقبلوا عندما يخيّم على القبيلة شبح أمرٍ جلل، أقبلوا كما اعتادوا أن يقبلوا عندما يُقرع الطبل المهيب، الموشّى برموز الأولين، في خباءِ الزعيم، فيتنادوا، ويتجمّعوا، ويقبلوا، تلبية لنداء الزعيم. أقبلوا، اليوم أيضاً، فدبّ الوجل، وجاس الاستنفار في النجع، فخرج، من البيوت، الفرسان والشيوخ والنساء والصغار، ووقفوا في مداخل الأخبية بخشوع من ينتظر هولاً، أو يتوقع زلزلة، لأن القوم الذين استمرأوا المقام، واستسلموا لإغواء الأرض، اعتادوا، أيضاً، أن يروا في اللفيف الجليل، اللفيف الأزرق الذي يبدو، عن بُعد، موشحاً بالسواد، فيتزأوا للجميع جمعاً من الغربان، ينذر اجتماعهم بزعزعة الاستقرار، ومحو الاسترخاء، وحلول البلبال، وبداية كل عمل باطل .

أقبلوا اليوم أيضاً، فاستنفروا، بإقبالهم، القبيلة برغم أن إقبالهم

اليوم اختلف لأوّل مرّة عن إقبالهم منذ عشرات السنين. اختلف لأن الأكابر اعتادوا أن يقبلوا على بيت عامر، ولكنهم أقبلوا اليوم ليجدوا خباء الزعيم خاوياً .

في مدخل الخباء توقّف «أمّامًا» الخالد ليطلق آهة الشجن الطويلة، ليتوجّع بأنين الوداع الوحشي، أنين إنسان يحتضر، الأنين الفاجع الذي أودى بحياة الكثيرين، أنين سمعه الأكابر نواحاً مميتاً في ذلك اليوم، فاستفزّ من العيون الدمع، وأدمى قلوبهم بنزيف سخيّ، فترنّح المعمّر كما يترنّح جاذيب الوجْد، فأسنده العرّاف من جانب، وأسنده «إيمسوان» من جانب آخر. صاح العجوز وهو يضرب ركيزة المدخل بعكازة الصقيل :

– كم مرّة دخلناك، أيها البيت، فوجدناك عامراً، واليوم جئناك فوجدناك خاوياً ؟

ناح بالأنين مرّة أخرى، فتدخل «إيمسوان» :

– يا جدّنا الجليل، هذا لا يليق !

مسح «أمّامًا» عينيه الدامعتين، مسح جفنيه الموشومين بتضاريس من التجاعيد حيث اختفى دمع العينين، ثم تكلّم :

– هذا يليق، وهذا لا يليق ! هذا يليق وهذا لا يليق ! أليس في لغة القبيلة لسان يتكلّم بعبارة أخرى غير هذه العبارة؟ ألم نقتل الزعيم نفسه بهذه اللغة؟ ألم نقل له عندما حاول أن يفهمنا بعدم نفع الشاعر للزعامة: «هذا لا يليق»؟ ألم نقل له عندما

رفرف قلبه وأراد أن يقترن بالشاعرة القديمة: «هذا لايليق»؟ ألم نقل له عندما أراد لنا خيراً، ورأى أن يستبطئنا في أرض سخيّة أطعمتنا وآوتنا: «هذا لايليق»؟ فلماذا لا نعترف ونقول أننا نحن الذين قتلناه بمدْية إسمها: «هذا لا يليق»؟.

قال العرّاف :

– يُحسن بمولاي أن يتصدّر المجلس إكراماً لربّ البيت. لأنّ الزعيم سيظلّ يتململ في بيته الجديد، ولن يهنأ حتى نفرغ من اختيار خليفة ربّ البيت .

وافقه الجمع بهمهمة جماعية. أجلس العرّاف المعمّر بجوار الركيزة، في قلب المجلس، وجلس بجوارة، على جهة اليمين. ترنّح المعمرّ مرّة أخرى :

– استجرنا بك من مظلمة فآمنتنا، وأحتكمنا إليك فانصفتنا، ولجأنا إليك فأطعمتنا، فأين ذهب مولاك؟ أين اختفى مولانا أيها البيت ؟

حاول أن يسطّر على الأرض رمزاً فغلبته الرجفة. دسّ كلتا يديه في التراب كما يفعل السحرة عندما يتطيّرون من شرّ، وتنهّد. لم تكن تلك تنهيدة. كانت آهة أخرى، أنيناً عميقاً، يخرج به الشعراء وجع الشجن، ويطفىء به الحكيم حزناً: «هيـ يـ يـ يه ..» فردّدها الجمع وراءه. ردّدها الأكابر كأنهم ستجيبون لنداء مجهول، فخرجت من صدورهم كزفرة المحتضر في الغمضة

التي يلفظ فيها أنفاس النزع الأخير .

(٢)

لم يتبدّد الحزن، وجمرة الوجع تحت الرماد لم تمت، ولكن حياء الأكابر لم يمنع الأكابر أن يستسلموا للأحزان طويلاً، فاستبدلوا سيرة الفراق بسرد المآثر، والتغنّي بالمديح. قالوا أنه لم يكن زعيماً فحسب، ولكنه كان أخاً لكل فرد في القبيلة. قالوا أنه عاش يتيماً من الأهل والأقارب، و لم يدركوا، لدهشتهم، فقده للأم والأب، للأخ وللأخت، للصديق وللقريبة إلاّ عندما فقدوه. قالوا أنه وُلد وحيداً، وعاش وحيداً، وخرج من حياة القبيلة وحيداً. قالوا أنه الزعيم الوحيد، في تاريخ القبيلة، الذي لم ينفرد برأي، و لم يرفض للمجلس طلباً، و لم يتخذ قراراً دون الرجوع للمجلس. قالوا أنه الزعيم الوحيد في تاريخ القبيلة الذي وهب حياته من أوّلها للقبيلة، فكان أن يخل عليه المجلس بكل شيء، ورفض أن يتنازل ويحقق له أصغر أمنية. قالوا أن الأبوين بخلا عليه بأخت تنجب له إبن أخت يكون له خليفةً، كما بخلوا عليه هُم بقرينة تنجب له إبناً يرثه عندما يعدم وجود إبن الأخت، فانتهوا إلى أن فجيعتهم فيه ستكون أكبر، لأنهم لن يجدوا لجلالته بديلاً. ترنّح «أمامًا» مرّة أخرى، وكاد المعمّر القديم أن يعيدهم إلى الوطن الذي فرّوا منه، فتدخّل العرّاف،

وقال أن عليهم أن ينحروا قرباناً لروح الفقيد. راق لهم الاقتراح، فهلّلوا باستحسان جماعي. هرع العبيد وحرّوا إلى الضريح المهيب عنزةً سوداء .

(٣)

نحروا العنزة السوداء، وجاءوا بغلام مشطور الرأس بشعر كثيف، ينتصب إلى أعلى، كعرف الدّيك. غمروا يديه بدم الأضحية، جرّوه إلى بنيان الضريح .وضعوا يديه على الحجارة، فكتبت الأصابع العشر العلامة التي حفظتها ذاكرة الأجيال. قالت الأصابع في العلامة المزبورة بالدم: «هذا دمنا نحن يا مولانا افتداه دم الإبن. هذا دم الإبن يامولانا افتداه دم العنزة السوداء». وقف الأكابر بالجوار، وردّدوا التميمة في خشوع: «هذا دمنا، هذا دمنا، هذا دمنا». سكتوا زمناً قصيراً. تلقفوا التميمة الثانية: «هذا دم إبننا. هذا دم إبننا. هذا دم ابننا». توقفوا مرّة آخرى. تسابقوا لترديد التميمة الأخيرة: « هذا دم العنزة السوداء قرباننا إليك.. » ثلاث مرّات أيضاً. ثم ركعوا، وترنّحوا، وغنّوا على رأس الزعيم وصيّة الأسلاف: « إيكْرهْكيْ آكاهَلْ، تموسَدْ آكيدَجْ* » .

* أصبحت مِلْكاً لكل زمان، وسلطاناً على كل مكان .

غنوا حتى فاضت عيونهم بالدمع، ثم جلسوا يتلذّذون بالشواء، ويتجادلون في أمر الخليفة. تكلّم «يمسوان» فقال أن القبائل اعتادت أن تنصّب أبناء أخوات الزعماء خلفاً للزعماء، فإن انقطعوا فالأبناء، فإن انقطعوا فأعقل العقلاء. ولكن «أمّامّا» خرج من وطنه الذي حوى الأوطان، لأنه وطن كلّ مكان، وتحرّر من زمن كل زمان، لأنه زمن الأزمان، وعاد إلى الصحراء، إلى القبيلة، إلى المجلس، إلى الميعاد بجوار الضريح. هدّد «يمسوان» بسبابته ممازحاً :

– أراك قد قفزت، فاسمح لي أن أصحح لك الوصية. الناموس يقول أن القبائل تختار العرّاف إذا انقطع الأبناء. العرّاف ورد، في الوصيّة، قبل أعقل العقلاء. أم أنّ الذاكرة خانتني مرّة أخرى، فرأيت ما لا يُرى، وسمعت مالا يُسمع، وقلت ما لا يُقال؟

ابتسم العرّاف بدهاء العرّاف. تكلّم العرّاف بدهاء العرّاف:

– لم يذهب الناموس مسافة أبعد من الأبناء. الناموس حرّر أيدي العقلاء في اختيار الخلف إذا عدم الزعيم أبناءً، وفي رأي قبائل أخرى أن « آنهي» غسل يديه من الأمر كلّه إذا عدم الزعيم أبناء الأخت، فكانت المجالس تختار أغراباً عن بيت الزعيم حتى لو أنجب أبناءً. أمّا العراف فإن الشرائع كلّها أعدّت له مكاناً بجوار الزعيم، وليس في مكان الزعيم. هذا كان منذ أقدم زمان،

فلماذا يحاول مولانا «أمّامّا» أن يتنصّل ويقرأ علينا وصايا في الكتاب الضائع لم نقرأها و لم نسمعها قبل اليوم ؟

ترنّح العجوز يميناً ويساراً، رمق العرّاف بنظرة كآبية، ولكنها نظرة تنطق باندفاع الصبيان القديم أكثر ممّا تنطق بتعب الشيخوخة. قال :

– ألم أسمعكم تقولون أن الكتاب قال: « ..أعقل العقلاء »؟ أم أن السمع خانني مرّة أخرى. هل تحسنون الظنّ بـ «أمّامّا» الذي فقد العقل من قديم، وصار النسيان وطنه الأول من قديم، لتولّوه أمر القبيلة، وأمر أنفسكم ؟

علّق « يمسوان »:

– حكيم صار النسيان وطنه أهون من حمقى يتباهون بالعقل، حتى إذا عبس الزمان، واقترب الخطر، هدّدوا حياتنا وحياة القبيلة بعقولهم .

تدخّل البطل « آهلّوم» :

– لم يبق أمامنا إلاّ القرعة. أحتكموا إلى سلطان الخفاء بأعواد القرعة.

ولكن «أمّامّا» سفّهه بخشونة :

– بل نحتكم إلى صاحب الأمر .

تساءل أكثر من صوت :

– صاحب الأمر ؟!

قال «أمّامًا» وهو يتأهب للعودة إلى وطنه:

– الزعيم. علينا أن نستشير الزعيم.

تبادلوا آراء جانبية. هلّلوا باستحسان. ردّدوا :

– أحسنت. أحسنْت. كيف فاتنا أن نستشير الزعيم منذ البدء ؟

(٤)

في الخباء تحلّقت النساء حول العذراء .

غسّلن جسدها البتول بالماء النّفيس، ودلّكنها بالمراهم المستحضرة من زهور الرتم، ومشطن لها من شعرها جدائل بهيّة، ثم زغردت لها العجائز وبشّرنها، في الأغاني، بالهناء، لأنّها ستصير قرينة للزعيم .

خرجن بها من الخباء مع العشية، ولكنهن لم يبلغن المرتفع المتوّج بالضريح إلاّ قبيل المغيب. شيعتهن العجائز بالزغاريد ومواويل الأشجان، وفي الطريق غنّت الشاعرة أشعار الحنين والموت والقران، فكانت الرفيقات يرددن اللحون الشجيّة وراءها، فيستبدّ الوجد بالفرسان، فيرتجفون، ويدمعون، ويفرّون خارج البيوت، ليتابعوا الموكب الجليل دون أن يجرؤا على الاقتراب خطوة واحدة. يمضي الموكب، يعبر العراء السمح المفروش بحجارة رمادية كئيبة؛ الحجارة التي عرفت مواقد

الأوّلين، لأنها لم تكن سوى أكواماً لأضرحة أخرى، أقدم، كدّسها الأسلاف عندما كانوا يحرقون موتاهم، ولكن الزمن بعثر الحجارة، والقِدْمة سوّتها بالأرض، والريح أعادها سيرتها الأولى، فصفّفها في المدى، ورتّبها في خلاء ، الحمادة ، السخيّ بالحجارة، ليعيدها إلى الحال القديم، ولولا اللّون، لولا القتامة الخفيّة، لولا بشرة الرماد التي تلبّست الحجارة، لما أدرك أحد أن هذه الرقعة لم تكن سوى مقبرة هائلة من مقابر الأوّلين .

اقترب الموكب من موقع الضريح فازداد خطو النساء بطءً، لأن المراسم الأولى التي رسمت السبيل (سبيل القرينة إلى بيت القرين) أرست قانون المسير، وقضت أن تهتدي الأنثى في الخروج، بهدي السيرة الأولى عندما كانت الأنثى، نفس الأنثى، تخرج، بالقوّة، من بيت الأب، تُخطف خطفاً إلى بيت القرين، فجرى الناموس بالأمر، وصار التردّد شرع الخروج. تقدّم الأنثى خطوة نحو قدرها، وتؤخر خطوة خوفاً واحتراساً. تمشي إلى الأمام لأنها تعرف أنه لا بُد أن تخرج يوماً، وتتباطأ، وتتلكأ، وتندم، لأنها تعرف إنها لن تعود إلى الوراء إلى الأبد، فتستنجد الكوكبة بكنوز الشعر، وتستعين على المأزق بالأغاني الحزينة التي تهيب بالقرين أن يترّفق بالقرينة، الأغاني التي تحثّ القرين أن يرى في قرينته مخلوقة بائسة، خُطفت من بيت أهلها غصباً، وتحثّ القرينة أن تكون لقرينها أرضاً، لكي يكون لها سماءً .

بلغ الموكب اعتاب الضريح، فبعث مجلس الحكمة برسول ينوب عن العقلاء في التفاوض من النساء. بدأت المفاوضات بلغة التَوْرية، وتغنّت ألسنة النساء بأمانٍ كثيرة أردنها للعذراء، فهرع بها الرسول إلى المجمعْ، ليعود إلى الموكب، في كلّ مرّة، قائلاً أن المتكلّمين باسم القرين قالوا أنهم سوف يحقّقون الأمنيات، وسيبنون للعذراء، لو أرادت، بيتاً بين الأرض والسماء .

تشجعت النساء، فاقتربن من الضريح خطوة أخرى، خطوات أخرى، ثم ركعن، وأجهشن في بكاء موجع، قبل أن يسلّمن كنزهن، ويضعن يد العذراء في يد العرّاف .

(٥)

انتهت مراسم الزفاف .

بدأت طقوس النبوءة .

انفضّ الجمع، وتفرّق الأكابر. في الخباء الذي انتصب فوق الضريح جلس العرّاف، يهمهم بالتمائم السريّة، ويتشبّث بمعصم الحسناء. بدأ التعاليم بصوت خفيّ :

– كل امرأة ستجد نفسها يوماً تنتحب في الرّكن، والرجل يمسك بمعصمها، والحسناء محظوظة أكثر من كل الصبايا إذا أُختيرت للدخول على الزعيم في بيته الأبدي .

علا نحيب الصبيّة. تمتمت همساً :

– ولكنّي أخاف ..

– من حق صبيّة تدخل بيت الرجل الذي يمسك بالمعصم أن تخاف، لأنّ الرجل قرين الوجع، ولكن مما تخاف الحسناء إذا نامت بجوار رجل نام إلى الأبد؟

خَفَتَ نحيب الفتاة. انتظمت الأنفاس في صدرها البكر. همست بصوت كوشوشة الريح في أحراش الرّتم :

– أخاف الظلمة، أخاف الوحدة، أخاف .. القبر !

– العزلة شرط النبوءة يا بنيّتي. لا تنسي أنّك ستعودي للقبيلة بالنبوءة في الغدّ.

زفرت بعمق من تخلّص من عبء، ولكن معصمها في يد العرّاف استمرّ يرتجف.

عاد العرّاف إلى التعاليم :

– ستهجعين بعد قليل. ستتوسّدين حجر الحَرَم. لا تخافي لأني سأكون بالجوار. تعلّمي ألاّ تخافي من وحشة، أو من عزلة، أو من خفاء، في مكان يرتاده العرّاف. سأكون قريباً لأنّي عرّاف، وقدر العرّاف ألاّ ينام. ستنعسين. وعندما تنعسين ستسمعين هرجه. فلا تخافي. بعد الهرج تقبل النحلة. ستسمعين طنين النحلة فلا تخافي. يذهب الطنين فيأتي مولانا في الحال. يأتي ليتكلّم. اسمعي جيّداً ما يقول. اسمعي وتذكري كل كلمة. قد يبدو لك كلامه غريباً أو غامضاً، أو مضحكاً، ولكن احترسي:

لا تنسي، ولا تستهيني. لا تنسي ما يُقال، ولا تستهيني بعبارة قد تبدو خالية من المعنى. لأن ماسترينه خالياً من المعنى قد يفوق ماسترينه ذات معنى، فاحترسي!

وشوشت العذراء بفضول العذراء :

- ولكن هل يظنّ مولاي أن مولاي سيظهر؟

- قد يظهر أيضاً إذا راق له أن يظهر، ولكن ما يهم هو العبارة. تذكّري أن طنين النحل سيسبق، في كل الأحوال، فانتبهي!

(٦)

أقبل العرّاف فجراً، ففوجيء بخلق يحوم حول الخباء. ظنّهم دهماء من أهل الفضول، ولكنه تبيّن ملامح البطل، فهتف :

- ظننت من حقّ العرافين وحدهم أن يسهروا الليالي، لأن قراءة الأنباء في جيوش النجوم مهنتهم. فأجابه البطل مازحاً :

- ولكن مولاي ينسى أن القبائل لا تذهب لإيقاظ العرّاف عندما يداهم النجوع خطر، ولكنّها تتسابق إلى خباء البطل .

استفهم العرّاف بقلق :

- خطر ؟

- بلاء ألمّ بقرينة مولانا الزعيم .

- بلاء؟!

- حمّى في البدن، جنون في العين، تقطّع في النّفس يذكّر بمرارة النزع الأخير .

اقتحم العرّاف جمعاً يسدّ المدخل. تفرّق الجمع وأفسح له الطريق. في الداخل تكأكأت النساء حول الفتاة، وانزوى بعض الشيوخ في الزاوية. كان الخباء يختنق بمراهم حادّة، كريهة الرائحة، مخلوطة بروائح أعشاب غامضة دُسّت في أمتعة العجائز طويلاً، كما تُدسّ التعاويذ، فصارت لها رائحة عظام قديمة تحترق، فلم يستطع أن يميّز في المزيج المزعج سوى رائحة الشيح. اختنق بالدخان، وأصابته الأبخرة بالدوار، فهجم على جمع النساء، وصاح ينتهر العجائز :

- أوقفن هذا! أبعدن هذا!

أفسحن له في الجمع سبيلاً فأبصر الفتاة: في وجهها رأى شحوب الأموات، في حين اشتعل جسدها كلّه بالمسّ. تنتفض، تتمدّد، ترتجف بعنف، حول شفتيها فرّ زبد كثيف، من فمها تسيل خيوط اللعاب، تهدّلت جدائلها الفاتنة، وتشتّت الضفائر في شعيرات شعثاء عفرها الغبار .

تحلقت حولها نساء، بينهن عجوز كئيبة، تعاند بدن الفتاة بيدين نحيلتين كحطبتين، مفتولتين بضفيرة سخيّة من العروق. فوق رأس الفتاة وقفت امرأة صارمة أيضاً. من يديها تتدلّى

مبخرة فخارية. بدّلها الاستعمال الطويل، وحرقها الجمر، فصارت سوداء كقطعة من الفحم. من وعاء الفخار انبعثت الروائح الخرافية المميتة، فدبّت المرأة الجهمة بين موقد المدخل وجمع النساء كلما خبا الجمر في الوعاء. سدّد إلى المرأة نظرة وعيد، وقال بلهجة وعيد :

– ابتعدي!

تراجعت المرأة إلى الوراء خطوة، فقالت العجوز بوعيد آخر :

– يتدخل العرّاف وهو أول من يعلم أن العذواء إذا أصبح الصبح، وخرجت من خباء القرين، صارت من نصيب النساء ؟

– ولكن القرين الذي خرجت من بيته العذراء ليس ككل قرين. إذا خرجت العذراء من بيت زعيم هجع صارت من نصيب العرّاف. لأنك تعلمين أن ثمرة القران، في هذه الحال، ليس وليداً، ولكنه نبوءة .

– أنظر ماذا فعلت نبوءة العرّاف بعذراء القبيلة. ذهبت في طلب النبوءة، فعادت من دنيا الخفاء بمسّ .

– تصابون بالمسّ وأنتم تتسكّعون في الخلاء، وتستنكرون أن يصيبكم المسّ وأنتم تستجدون نبأ من إنسان صار من سكّان الخفاء ؟

– ولكنها، يا مولانا، تحتضر. الفتاة ستدرك الزعيم وتسكن

الضريح قريباً إذا لم تأتوا بساحر يفكّها من أسرر الجنّ.

– هل قالت شيئاً؟ فليخبرني كل من سبقني إلى هذا المكان عن كلّ قول حتى لو بدا لكم لغواً وثرثرة .

– إنها تهذي. لم تكفّ المسكينة عن الهذيان منذ أيقظتنا صرختها الأولى .

انحنى العرّاف فوق رأس العجوز فلامس طرف عمامته لفافة اللحاف. تكلّم بصوت مكتوم كأنه همس :

– ماذا قالت في الهذيان؟ لو عصرتِ رأسك وتذكّرتِ قولاً واحداً في ما تسمينه هذياناً فسوف أدفع لك كراءً جزيلاً .

ومضت مقلة العجوز في ضوء النار. ومضت بألق غامض، وفرّت الشفة العليا الموسومة بثنايا التجاعيد. قالت :

– ما أصعب أن يستعيد هذيان إنسان يحتضر مَنْ عبر أرض اللعب والدُّمى، وبلغ الشطّ الآخر من الوادي.

اقترب العرّاف من أذن العجوز. ألح بصوت كالفحيح :

– في الهذيان يكمن السرّ. في لغو المسوس تتخفّى النبوءة.

زفر وأضاف بيقين العرّاف :

– في لغو المسوس تتخفّى أعظم نبوءة، فاحترسي!

سكتت العجوز. أسبلت جفنين مكسوّين بالغضون أيضاً. ولكن اليدين لم تتوقفا عن معاندة جسد الفتاة. تكلمت أخيراً.

تكلمت دون أن تفتح عينيها. تكلّمت كعرّافة حقيقية:

- تِكْرَهِميْ أدَّارغ ..

توقفت. أرتجفت في وجهها التجاعيد. تكاثفت الثنايا. ازدادت عروق جيدها النحيل بروزاً، فتحوّل حبكة من العروق. تكلمت بلسان الفتاة، بلسان النبوءة :

- تِكْرَهِميْ أدَّارغ، إيكَوَ نكْرهغ أمّوتَغْ. *

ردد العرّاف بذهول :

- تِكْرَهِميْ أدَّارغ، إيكَوَ نكْرهغ أمّوتَغْ .

ردد النبوءة مرّة، مرتين، مرّات. انتصب. رفع رأسه إلى أعلى. قال كأنه يخاطب السماوات :

- النبوءة. هذه هي النبوءة. ننحر القرابين ونسعى في طلبها أجيالاً، وننسى إنها ترقد بين شفتي ممسوس، أو تتوارى في فم مخلوق نسمّيه مجنوناً. فماذا كان سيحلّ بقبائل الصحراء لو خلت الصحراء من النبوءة ؟ ماذا كان سيحلّ بنجوع فقدت زعماء، لو لم يبعث الزعماء من مملكة الخفاء نبوآت في ألسنة أهل المسّ، فينيرون السبيل لقبائلهم في غيبتهم؟ هل سمعتم صوت زعيمكم أخيراً؟ أليست هذه لغته؟ ألم يرق له دائماً أن يتكلم بالأحاجي؟

* امتلكتموني حيّاً. سوف أمتلككم ميّتاً .

انتقل إلى الزاوية الأخرى حيث تجمّع الأكابر. قال كأنه يخاطبهم جميعاً. بل كأنه لا يخاطب أحداً، لأنه في تلك الساعة كان متهمكاً في مخاطبة قبائل المجهول :

- أليس ما سمعتموه هو الجواب الحكيم الذي يليق بزعيم؟ ألم يقل لكم قولاً لم يكن يستطيع أن يقوله لكم عندما كان بينكم؟ ألم تمتلكه حيّاً؟ ألم تمنع إقترانه بمعشوقته الشاعرة؟ ألم تجبره على قبول زعامة كانت له قيداً؟ ألم تأته زرافات لتجرّه إلى الخلاء غصباً؟ ألم تبخل عليه أن يستمتع بأغنية الطير؟ فهل تشكّون أن هذا الصوت الذي سمعتموه الآن هو صوت زعيمكم القديم؟ هل ستشكّون مرّة أخرى في قدرة الأموات على تنفيذ الوعيد؟ هل تنوون أن تستهزؤا بالوعد؟ أم أنكم ستحتكمون إلى الحكمة، وترتضوا زعامة من امتلكتموه حيّاً، فأقسم أن يمتلككم من وراء ستار؟ هل تشكّون بعد الآن أن الزعيم سيبقى عليكم زعيماً إلى الأبد؟

التفت إلى الخلق الذي تزاحم في مدخل الخباء. صرخ بأمر:

- انحروا القربان! كيف يستقيم أمر النبوءة إذا لم تُسفح لها دماء القرابين؟ كيف تريدون من إلهة النبوءة أن تشفي من مسّ الخفاء إذا لم تتخضّب بالدّم؟ هاتوا المعزة السوداء إذا كنتم تريدون للصبيّة الشفاء. هاتوا أكثر معزاتكم سواداً إذا كنتم تريدون أن تروا

الدواء الذي لا يُقارن ببخار الجدّات الكريه.

انطلق الأتباع والعبيد. عادوا من العراء بأكثر المعزات سواداً. سلّموا العرّاف مدية النحاس. اقتحم العرّاف جمع النساء. أمر بصرع الأضحية بجوار الجسد المسكون. همهم بالتمائم القديمة التي لم يفهم أحد يوماً في رموزها لفظاً واحداً، فتحدّثت الأجيال عن غموضها لعلّة القدْمة، فقيل إنها لغز لأنها كُتبت باللغة الأولى التي اندثرت وزالت ونُسيت، ولم ترث القبائل من لسانها إلاّ الألفاظ المبهمة التي تنطق بها التمائم، فلا يعرف ها العرّاف نفسه أي معنى .

جرّد المدية من الغمد المزخرف بالتمائم أيضاً. لمع نصل المدية في ضوء النار، ورسم في الفراغ رمزاً. نزل الكاهن على نحر القربان بالنصل النهم، ففرّ دم جزيل جداً. حشرج الحيوان واختنق بأوجاع النزع الأخير، فتزمّن النحر مزيد من الدم. تناثر الدم ولوّث نحر الصبية وجيدها، ووجهها، فأصاب البدن تبدّل. بدأ الجسد المزموم يسترخي، وهدأ التوتر في عضلات الوجه، واختفى إيماء المسّ من العينين، وتوقف في الفم نزيف الزّبد، وبدأت الأنفاس تنتظم وتستعيد الإنسجام الضائع .

استولى على البدن الشقيّ سكون عميق، وتمتمت الشفتان في غيبوبة النعاس :

- تكْرهَميْ أدّارغ، إيكونَكْرهَغْ أمْوَتَغْ .

خارج الخباء، في قوس الأفق الممتد شرقاً، انبثق قبس وليد، مومئاً بميلاد فجر يوم جديد. تمتم العرّاف: «صدقت. نحن قوم لا ندرك من أمرنا شيئاً ككل قوم، ولكننا نعرف أن لا أحد يصلح حقاً أن يخلف الزعيم أحسن من الزعيم نفسه .

٦

العاشق

«الذي تزرعه لا يحيا إن لم يمت»

رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس

«الحجر يعبّر عن ذلك الجانب من الذات الذي ينتصب معتزلاً، مشدوداً إلى الطبيعة»

كارل غوستاف يونغ

روح عطارد

(١)

التأموا للإجتماع في مجلس جديد، فابتدأ العرّاف :

– من يستطيع أن يخلف الزعيم غير الزعيم؟

أُجيب بالسكوت فألقى سؤالاً جديداً :

– من استطاع أن يأتي للقبيلة بزعيم يصلح خلفاً للزعيم نفسه فليتكلّم .

لم يتكلّم أحد .

أعلن العرّاف :

– نفينا في نفسه الزعامة في زمان كان فيه زعيماً، ونصّب نفسه علينا زعيماً عندما انتقل إلى الخفاء، فهل تستهين بالخفاء وتتجاهل النبوءة ؟

أشار بسبابته إلى حجارة الضريح. تكلم بصرامة :

– هذا الكوم هو كنزنا منذ اليوم، فهل تدرون بماذا أجابني عندما ساءلته عن الأسفار ؟

لم يستطع الوقار أن يكبح الفضول. فشلت الحكمة في التظاهر باللامبالاة، خسر الكبرياء عراكه القديم في احتقار شؤون الدنيا، فانطلقت الألسن في هتاف جماعي: بماذا قال؟ أجبنا: بِمَ أجاب عن سؤال الهجرة؟. ابتسم العرّاف بخبث الدهاة، وتعمّد أن يتباطأ في الجواب. تعمّد البطء ليؤجج في الصدور نار

الفضول، ويحرق قلوب أكابر احتقروا فيه هفته في طلب النبوءة دائماً. سكت طويلاً. ثم تكلّم. لم يتكلّم كما اعتاد أن يتكلّم، ولكنه تنازل عن وقار الكُهّان، أيضاً، و .. غنّى. أسدل لثامه على عينيه، وشيع رأسه إلى الأعالي، وتمايل كما يتمايل محاذيب أهل الوجد، و .. ردّد النبوءة بالصوت الملحون: «تفا لم آمضال، تكّام آمضال، ما تكّام ؟» * تنزّل على المجلس سكون. ذهب الجمع وراء الرسالة بعيداً، وتأمّلوا المجاز طويلاً، ثم هتفوا «مسلك مَنْ نسي أمراً: «هل قال مولانا هذا حقاً؟». لم يجب العرّاف، فتدخل الإنسان الوحيد الذي حمل القِدْمة على منكبيه، فانتزع الحقّ في أن يتكلّم بالقول الفصل:

– هذه لغة تليق بمولانا. هذا لسانه حقّا. وهذه حكمته. ألا ترون أن الامتثال هو ما تبقى لنا ؟

احتجّ أنصار الأسفار بهمهمة، وتقاربت عمامات، وتناطحت رؤوس، وتظاهر أكابر بتبادل الشورى مع أكابر، ولكن «أمّامّا» الأقدم عهداً لم يمهلهم. تناول عكازه الصقيل، وانسلّ خارج الخباء .

(٢)

تتكلمت ألسُن بالإعتراض، وذكّرت أفواه بوصايا الناموس

* تزكون تُراباً، وتهاجروا إلى تراب، فلِمَ المسير ؟

التي حذّرت من مغبّة الإستسلام لإغواء الأرض، فتولّى الزعيم أمرهم جميعاً، وأخبرهم على لسان العذراء بنبأ جديد. قالت النبوءة: «يسُّوكال أوادم ييواي إيما نّيت، مايكّا ؟» *

ردّدها العرّاف في لحن شجي جليل. ففرّ من عينيه دمع. ردّدها طويلاً قبل أن يرسل في طلب النّذير. أقبل النذير فأوكل له المهمّة. خرج النذير إلى النجوع ليبشّر بالنبوءة، فأعقبته العذراء إلى بيت العرّاف حاملة نبوءة جديدة. قال الزعيم على لسان العذراء: «إيتكّمْ إتّقلمد دِيغْ يوهزن»**. فبكي العرّاف مرة أخرى، وناح بالأغنية محدّقاً في أفق المدى، مترنّحاً على طريقة المأخوذين الذين خطف الغناء عقولهم. أمضى وقتاً طويلاً في سفره الخفيّ، وعندما عاد أخيراً، صرف العذراء، وأرسل في طلب النذير من جديد .

(٣)

تسكّع في الخلاء أياماً، وعاد من الخلوة بوحي: استدعى رجلاً اشتهر بمهارته في تشييد الأضرحة، وعُرف في القبيلة كعاشق لمملكة الحجارة. جالسه خارج الخباء في ظلال العشيّة. تربّع وقال :

* يسافر الإنسان حاملاً نفسه، فأي مسير هذا ؟

** إنما ذهبتم، فستعودون من مكان قريب .

– هل آمنتكم أخيراً بعدم جدوى العبور؟

دسّ العاشق عمامته في الأسافل، وشرع يفتّش التراب بالأصابع بحثاً عن حبيبات الحصى. يلتقط الحبّة بيمناه، فيودعها راحة يده اليسرى. أجاب على السؤال بعد زمن :

– آمنّا أم لم نؤمن، فإن الخفاء سيبيّن حتى بعد أجيال أصواباً فعلنا أم خطيئة ارتكبنا .

– هل أفهم من هذا أن ضيفي فضّل أن ينحاز إلى فريق أهل الشكوك ؟

– ضيف مولاي لم يفضل الإنحياز إلى أي فريق، ولكنّي أتحدّث عن مشيئة الأقدار . في مسير الزمان جواب عن سؤال مولاي .

تابعه العرّاف بفضول. نصب ركبته إلى أعلى، وترك الفخذة الثانية طريحة الأرض . قال :

– لم أبعث في طلب الضيف الوقور لأجادله في أمر الأسفار في كل حال، ولكنّي أردت أن نتشاور في أمر آخر .

مضى العاشق ينبش التراب، ويجمع الحصباء في راحته باهتمام. قال :

– لم أشك في هذا أيضاً، لأن العرّاف لا يرسل في طلب مخلوق لكي يجادله في أمر السماء، أو شأن من الشؤون التي أعتدنا أن أمرها لا يهم إلا أكابر مجلس الحكمة .

– مهلاً، مهلاً ! ها أنا أرى ضيفي يوشك أن يضلّ السبيل، فالحق أنّي أرسلت في طلب ضيفي الوقور في أمر له علاقة حميمة بالسماء ..

توقف العاشق عن حرث التراب بالسبّابة، شيّع إلى العرّاف نظرة مستفهمة لأول مرّة. أضاف العرّاف :

– رأيت أن أحيط ضريح مولانا ببنيان، وأنت تعلم أنّك الإنسان الوحيد في كل القبيلة الذي يستطيع أن يتقن الصنع .

سقطت من الكف اليسرى حبيبات، فالتقطها بخفّة من أضاع كنزاً، ثم قال :

– آمل أن أكون عند حسن ظنّ مولاي، ولكني لا أفهم الحاجة الداعية إلى بناء ضريح حول الضريح .

– أقمنا ضريحاً لمواراة أجساد الأموات، ونقيم ضريحاً لإيواء أجساد الأحياء !

– الحق أني لا أفهم ..

– علّمنا الأسلاف أن نشيّد بنياناً واحداً حول عظام الإنسان الفاني لأننا أمّة عابرة، ندفن موتانا اليوم لنرحل غداً، ولكن الناموس لم يترك لنا وصيّة بشأن الموتى الذين قررنا أن نجاورهم إلى الأبد، لأنهم صاروا لنا قدراً منذ ذلك اليوم الذي باتوا فيه سبيلنا الوحيد إلى السماء.

اختلس إلى الجليس نظرة من وراء اللثام، فوجدا أصابعه

تسعى في التراب بهمّة جيوش النمل، فابتسم قبل أن يمضي :

– نهتدي اليوم في حياتنا بالقبس الذي يأتي من الضريح، كما يهتدي العابر بالنجوم، وكما أهتدى أسلافنا من قبلنا بضياء الناموس المفقود .

– بدأت أفهم. مولاي يريد أن يعوّض الركيزة التي فقدناها ببنيان يستعيد دور ركيزتين في آن: ركيزة تهاوت برحيل الزعيم، وركيزة ستهوى بعد أن تطوي الأحبية إلى الأبد لتصبح طعاماً للعثّ والسوس .

تجاهل العرّاف إيماء الضيف، وتكلّم بلغة الإيضاح :

– سيتكاكأ الناس على الضريح فضولاً، وسيأتي آخرون طلباً لنبوآت شورى لا وجود لسرّها إلا في غيب لا يعلمه إلاّ اهل الغيب، وسيقبل العابرون أيضاً، وستبعث القبائل برسل تفسيراً لإشارات، أو استجداءً لمشورات، وستتزاحم المِلل، وسيكثر الخلق، ولن تجد حول المكان، بعد حين، موضعاً لقدم، ولن تستطيع العذراء أن تتمدّد أو تستلقي، أو تهجع. فأسرع، وجدْ في تشييد البنيان، واشطر البنيان إلى ديارٍ ثلاث: دار تكون بيتاً للضريح، ودار تصلح مقاماً للعذراء، ودار تنفع ساحة لنحر القرابين، واستقبال الزائرين والرسل وطلاّب النبوءة .

أفلتت من بين الأصابع حبّة حصى، فتفحّص الأرض بعناية، ونبش التراب مُفتّشاً، ولم يتساءل إلاّ بعد أن التقطها :

– وكيف يرى مولاي صورة البنيان ؟

– عن أي صورة يتحدّث الضيف الوقور ؟

– أردت أن أقول أن صورة الضريح تقوم دائماً في جسم مستدير لأن الأوّلين عندما ابتنوا أول بيت لأوّل الأموات أرادوا أن يُحاكوا الخفاء، فشيّدوا ضريح الخلاء تشبّهاً ببيت الأبد، فأيّ صورة سينال ببنيان يُبنى فوق هامة بنيان ؟

– الحق أنّي لم أفكرّ في هذا أبداً .

– يدري مولاي أن الاستدارة قَدَر كل جسم في الصحراء.

– الحق أني لم أفكّر في ذلك قبل اليوم .

– يعلم مولاى أن للذهب جسم مستدير .

– الذهب؟!

– لهذا السبب يسك الحدّادون هذا المعدن في مسكوكات مستديرة عندما يصنعون الحلي ومقتنيات الزينة .

– الحق أنّي ..

– للحيّة أيضاً صورة مستدير .

– الحيّة ؟

– مولاي يعلم أن الحيّة لا تأتي فعلاً بلا سبب خفي أبداً، فإن استدارت، والتفّت حول نفسها ففي ذلك سرّ ..

– ماذا تقول ؟

– للصحراء أيضاً جسم مستدير .

– مهلاً ..

– ويقال أن الحية لم تستدر إلاّ محاكاةً للأمّ التي أنجبتها ..

– ولكن ..

– إيبا. إيبا، يا مولاي، أيضاً في جرم مستدير *

– إيبا ؟

– فإذا كان «إيبا» مستديراً، فإننا نستطيع أن نجزم أن للخفاء أيضاً جسمه المستدير .

– انتظر ..

– لهذا السبب أبى الآباء إلاّ أن يبتنوا أول «إدَيْبِي» ** مستديراً .

– تستطيع أن تشيّد البنيان على أي صورة تشاء، ولكن ..

– أنا، يا مولاي، مخلوق لا يشاء لأني لا أنوي أن أستهين بنواميس الخفاء، ولا أريد أن أتطاول في البنيان اجتهاداً .

– صدقت. أردت أن أقول أن ما يهمني هو البنيان، أما صورة البنيان فهي من شأن حكيم البنيان .

– ظننت أن العرّاف سيفوقني حرصاً على ناموس الخفاء،

---

* إيبا: الروح .

** إديبي: الضريح

خاصة إذا تعلّق الأمر بشكل حجارة ستكون للناس حَرَمًا .

– شأن العرّاف كل أمرٍ خفي، أمّا ماظهر وتبدّى لأنظار الناس، فقد صار ملك الناس .

توقف عاشق الحجارة عن نبش التراب. تمتم بوشوشة من يخاطب نفسه :

– ألَنْ يهم العرّاف أن يعلم أن للنبوءة أيضاً جسماً مستديراً ؟

تأمله العرّاف بفضول. تساءل بالوشوشة أيضاً :

– النبوءة ؟

ولكن العاشق هب واقفاً. سرح في الفراغ بعيداً، ونقل حفنة الحصى من القبضة اليسرى إلى القبضة اليمنى، ثم إلى القبضة اليسرى من جديد، قبل أن ينطلق دون أن ينطق بكلمة وداع .

(٤)

قبل أن يهشّ العاشق جيش الأعوان إلى السفوح المجاورة ليبدأ اقتلاع الحجارة، بعث إلى العذراء بوصيّة تقول: «سأبني لك بالأيدي قبراً لم يبنه أجدادك لآبائهم، و لم ترَ الصحراء لبهائه مثيلاً . فقبل أن العذراء ابتسمت بغموض عندما تلقّت الوصيّة، ولكن الدعابة الغريبة لم تثر فيها انفعالاً جليّاً، فظلّت تجيب

بالبسمة الخفيّة كلّما ذكّرتها بالوصيّة قرينة، أو أعاد لها العاشق قراءة الوصيّة أثناء لقاءاتهما العابرة في العراء، أو بين المضارب، في أمسيات الإختفاء باكتمال القمر .

سرح العاشق علىّ رؤوس المرتفعات الشمالية، وحصد حجارة الروابي مستعيناً بالعاطلين والدهماء وجموع الصبيان. وعندما فرغ من الشعاف المجاورة، زحف غرباً، وبلغ أحاضيض الجبال الأبعد، فجرّد سفوحها، وتسلّق الأعالي، فقيل أنه كان يعلّم الأتباع، ويحثّ أهل العون أن يحاكوا مهارة الطير في صنع العشّ المستدير، إذا شاؤا أن يفلحوا في إبتداع الحجر البهيّ، الحجر المستدير. وقيل أيضاً أنه شدّ آذان البلهاء مراراً، وساقهم إلى الأمكنة التي اعتاد الطير أن يخبىء فيها أعشاشه لا ليريهم براعة الطيور في حبك بيوتها، ولكن لينتشل من الأعشاش البيض الأبقع، الوديع، ليدفعه في وجوه البُلداء قائلاً: «هل رأيتم عجائب الطير؟ ألا ترون أنه لا يبني عشّه وحده على النسق المستدير، ولكنه يلد بيضه أيضاً مستديراً؟ ألا ترون أن الجسم الذي لا يولد في بيت مستدير لا يعيش؟ ألا تعرفون أن البنيان إذا لم يقف مستديراً لا يصلح للحياة؟ هل ظننتم أنّي معتوه مثلكم لأني أريد أن أعلمكم أن تتبعوا السبيل الذي تقود إليه الصحراء؟».

بلغت الوصايا أذان العرّاف، فقال الرواة أنه كان لا يكف عن الابتسام. ربّما لأن العاشق لم يخاطب جموع الدهماء بنفس

اللسان الذي خاطبه به في تلك الليلة، فشعر نحو الحكيم بالإمتنان، لأنه لم يوجّه إهانة إلى الحكمة عندما أبى أن يستخدم لغتها في مخاطبة قوم يعادون الحكمة، ويشكّون في نوايا أهل الحكمة .

بدأ العاشق، أخيراً، في تشييد البنيان. شذّب الصخورة، وسوّى ألواح الصلد، وتحوّلت الحجارة بين يديه قطعاً من عجين، فكان أهل النجع يرمقونه بإعجاب وهم يرونه ينهمك في صنع الأحجار بلهفة عاشق حقيقي. وتحوّل الإعجاب إلى دهشة عندما أبصروا قيام أبنية متداخلة ثلاث ذات قباب دائرية جليلة: شيّد فوق الضريح بيتاً مستديراً، ذات قبّة مستديرة، وابتنى بالجوار بيت العذراء، وجعل بينهما باباً مقوّساً، دائرياً أيضاً، فصار الدخول إلى حَرَم النبوءة مشروطاً بعبور دار العذراء. ثم ألصق بالبيتين داراً ثالثة، تفضي إلى بيت العذراء من الجهة المضادّة، بباب مقوّس، مستدير، وجدران مستديرة، وشعفة مستديرة في الأعلى، وقال للقوم أن اسمها «دار القرابين والأضاحي» .

لم يكن البنيان أعجوبة لأن سلالة العابرين اعتادت ان تتجنّب الأبنية، ولم تعرف في سبيلها إلاّ قبور العابرين، وأضرحة الأولين، ولكن لأن الحكماء أكّدوا أنهم لم يروا للبنيان مثيلاً حتى في أكثر الواحات رفاهة وترفاً، فغاب عن العقلاء أنفسهم

الشبه الخفيّ الذي استعاره حرّم البنيان من أضرحة أسلافهم وقبور أجدادهم. وهو حرّم أرجعة القوم إلى افتتان عاشق الحجارة بالجسم الدائري، وإيمانه الغريب باستدارة كل جسم خفيّ .

(٥)

انتهى العاشق من عمله فجالس العرّاف. أثنى العرّاف على البنيان، وردّد له: «أحسنت» مراراً، وتحدّث عن بهاء الأبنية التي رآها في واحات الصحراء، وانتهى إلى القول أن القباب فاتنة حقّاً، ولكنها صارمة أكثر مما ينبغي .

استمع العاشق صامتاً. كان ينكفىء طوال الحوار على الأرض، يلملم الحصباء، ويجمع حبّات الحصى في كوم صغير. تكلّم دون أن يشيّع رأسه :

– ألا يرى مولاي أن الصرامة من سيماء الخفاء ؟

– صدقت. صدقت. ولكن لا تنسَ أننا أردنا بالبنيان أن نجذب إلى الضريح خلْقاً .

– لن ينجذب الخلق إلى الضريح بحرّم البناء، إذا لم يجذبهم حبّ النبوءة .

– صدقت أيضاً، ولكن مهلاً؛ هل تشكّك في مقدرة الوعاء على الإغواء ؟

ألا ترى أن أهل العبور ليسوا سوى أطفال كبار يجب استدراجهم بالدُّمى إذا أردت أن يتبعوك ؟

– لم آتِ ببدعة يا مولاي، ولكلّ لهو أو لعب ناموسه القديم .

– ماذا تريد أن تقول ؟

– قلت ما يجب أن يُقال، كما فعلت، قبلها، ما يجب أن يُفعل. قلت أن علينا أن نكتشف الإيماء في كل شيء، كما يجب علينا أن نحتكم إلى وصايا الأولين إذا دبّ بيننا الخلاف في أمر. أم مولاي ينتمي إلى الصفّ الذي لا يقرأ هذه الوصايا إلاّ في بقايا الكتاب المفقود ؟

– الحقّ أنّي لا أفهم .

– أضرحة الأولين أيضاً إيماء يا مولاي. قبور السلف أيضاً رسالة. كل شيء في الصحراء هو وصيّة قديمة، ونبأ يستحق منّا أقصى الاهتمام. وكل مافعلته أنّي حاولت أن أقرأ الرسالة، وجاهدت كثيراً كي أفكّ رموز الوصايا، والصرامة التي استفزّت مولاي جزء لا يتجزّأ من ناموس الأوائل .

سكت العرّاف. رسم على التراب رمزاً. نبش الأرض، واستخرج من الجوف حجارة. استمرّ العاشق :

– على مولاي ألا ينسى أننا لا نشيّد البنيان إجلالاً للزعيم وحده، ولكن لأننا قررنا أن نستضيف فيه السماء كلّها. وإذا

شئنا أن تكون استضافتنا لها كاملة، فعلينا أن نقيم لها بيتاً يحاكيها ويتشبّه بها، لأن استدارة البيت مستعارة من استدارة السماء. لقد قلت لك في ذلك اليوم أن كل الأشياء الجليلة مستديرة، لأنّ الخفاء له صورة مستديرة .

– أراك تتحدث عن استدارة الخفاء بيقين العائد من زيارة الخفاء !

– كلّنا، يا مولاي، أبناء الخفاء. كلنا جئنا من مملكة الخفاء، وكلنا سنعود إلى مملكة الخفاء ..

– أرجو ألا تسيء بي الظنّ، ولكن أهل العقل في القبيلة حدّثوني فقالوا أن في شغفك بهذه الدوائر شيء معيب ومنفر!

– يحزنني أن أسمع هذا من لسان اعتاد أن يتغسّل بقول النبوءة.

– قلت لك أن هذا ليس لساني، ولكنه لسان العقلاء .

– إذا كان لسان من يدّعي احتكار العقل هو الذي قال هذا فما أبعد هؤلاء عن العقل، وعن امتلاك العقل. لأنّي لا أعرف كيف يدّعي المرء امتلاك العقل ويستنكر استدارة السماء أو الخفاء أو النبوءة. فليحرنا الخفاء من عقل كهذا. توسّل إلى الخفاء أن يقيك من عقل كهذا، أيضاً، يا مولاي !

فرّ. فرّ واقفاً، ودبّ في الظلمات. أطلق العرّاف خلفه النداء :

– مهلاً، مهلاً ..

ولكنه لم يلتفت. ابتلعته الظلمة بعد غمضة .

(٦)

لم يختفِ العاشق، في ذلك المساء، من جوار خباء العرّاف، ولكنه اختفى من النجع، وتبدّد من أرض القبيلة، فلم يره بعد ذلك اليوم أحد، لا في الوديان الشمالية، ولا في منتجعات القبائل المجاورة، ولا في الواحات البعيدة، ولا في رفقة القوافل المهاجرة أبداً. اختفى كأنه فرّ من الصحراء كلّها. اختفى كأنه عاد إلى الوطن، وابتعله الخفاء ..

نشطت الروايات في القبيلة بعد إختفائه، فأطلق أهل الفضول ألسنتهم كما اعتادوا أن يفعلوا في مثل هذه المواسم. قالوا أنهم اكتشفوا سرّ العاشق. قالوا أنهم ظنّوه عاشق الحجارة فحسب عندما سمّوه عاشقاً، ولكنهم لم يكتشفوا عشقة للعذراء إلاّ بعد فراره. قيل أيضاً أنه قال لأحد أعوانه في تشييد البنيان، إنه وفى بالوعد، وصنع بيديه لمعشوقته قبراً لم يفلح أدهى الأسلاف في صنع مثيل له في كل الصحراء. فماذا يفعل العاشق في أرض دفن فيها معشوقته بيديه ؟

٧

طير الخفاء المزدوج

«الموسيقى تمتاز عن كل الفنون الأخرى لأنها لا تعبّر عن الأفكار، أو درجات تجسّم الإدارة، ولكنّها تعبير عن الإرادة ذاتها».

ارتور شوبنهاور

«العالم كإرادة وكمظهر»

«لم يكن منسياً، لم تكن الحرقة في أغانيه منسيّة أيضاً، لأنه دأب على البحث لإيجاد ما أضاع في الأحزان».

سورن كيركيغور: «الخشية والاضطراب».

(١)

عرفت القبائل طيراً آخر.

عرفت القبائل طيراً آخر، في أزمنة أخرى، فنعتته الأجيال بأشعار مديح ما تزال الألسن تتسلّى بترديدها إلى اليوم. تحدّثت عنه اللحون فقالت أنه يتقن اللحون، و لم يفقد بدنه البديع إلاّ لاستغراقه في الأغاني، وافتتانه بالأنغام. ولكنه لم يغب عن دنيا الخلاء إلى الأبد، لأنّ أخيارٌ كثيرين رأوه، فكانت لهم الرؤية فالاً خيّراً، لأنهم مالبثوا أن فقدوا أجرامهم أيضاً، وتحرّروا من أسْر الخلاء .

قيل في السيَر أن الأجيال جرّبت أن اولئك الذي أصطفاهم الخفاء، فأظهر لهم طائره النبيل، مالبثوا أن شاركوه المصير، ففقدوا أبدانهم الموجعة أيضاً، وفرّوا من الصحراء، ليصير لهم الفراغ وطناً .

(٢)

أقبل، كما يقبل كل مرّة، مع أنفاس الخريف .

طوّق الإصفرار أحزمة الأشجار في وادي الرّتم، وتذبذب الريح، فهبّ من ناحية الشرق، ثم انتقل حالاً، فهبّ من ناحية البحر المحيط، ثم سكن فجأة حتى أيقن أهل النجوع أنه قد هاجر إلى أوطان أبعد، فهبّ من ناحية الشمال، مع حلول المساء، ببسالة

أكبر. يضطرب النَّبْت في كلّ الصحراء، ينوس العشب الهزيل المستجير بالأرض، وتستجيب خصلات الرتم، وعمامات الطلح، برجف حميم، فتغنّي الصحراء ابتهاجاً بتبدّل الفصول .

يقبل الطائر من المجهّول ليغنّي أغنيته أيضاً .

يقبل ليتغنّى بالتحوّل الحزين في سيماء الشجر، ويومىء في لحون الأشجان لذلك الشيء الغامض، النفيس، الذي يختلسه الخريف من صدور أهل الخلاء في كل عام، فيحزنون لفقده كثيراً برغم أنهم لم يدركوا له سرّاً يوماً لأنهم كانوا سيحزنون أكثر، وسيعرفون شقاءً أكبر، لو عرفوا أن الجوهرة المفقودة إسمها: الحياة !

(٣)

اختلف الرواة في شأن حجمه، ولونه، ومسلكه .

قال بعضهم أنه يقلّ حجماً عن «مولا .. مولا» قليلاً، وقال آخرون أنه يقلّ عن «مولا-مولا» كثيرا، وأقسم فريق ثالث أنه في حجم ذكر النّحل .

أختلف أهل الخلاء في شأن اللون أيضاً، فقال البعض أنه أبقع، وأكدّ آخرون أنه فضّي موشّى الجناحين بسيماء خضراء تميل إلى اللون الأصفر مما يجعله أكثر فتنة في الومضات النادرة التي يمرق فيها بين الأحراش فيغمر الضوء جناحيه. وذهب فريق ثالث إلى أبعد فقالوا أنه بلا لون، لأن لا أحد يستطيع أن يخلع

لوناً من الألوان على كائن لم يسبق لأحد أن رآه. وادّعوا أيضاً أن أولئك الذين جادلوا في شأن حجمه أو لونه أو مسلكه ليسوا سوى شعراء اعتادوا أن يروا مالا يراه الناس، ويسمعوا ما لايسمعه الناس، ويقولوا ما لا يقوله الناس .

ولكن الإدّعاد لم يمنع القبائل أن تتجادل في أمر مسلك الطائر أيضاً. قال رواة أنه يعشق الوديان، ويؤثر الاختباء في أحراش الرّتم التي يغزوها شحوب الخريف، يكمن في أصول الشجيرات زمناً قبل أن ينفخ في مزاميره ويبدأ عزفه العجيب. وقال آخرون أنه لا ينزل الوديان السفلى إلاّ أخيراً، لأنه يعتصم في عمامات الطلح في السهول العليا، ويمكث هناك أمدًا قد يطول وقد يقصر، ولا يتسلّل إلى أحاضيض الوديان إلاّ عندما يحين الميعاد، ويأتي أوان الغناء .

ولكن أهل الشكوك جاءوا وطعنوا في هذه الروايات أيضاً. قالوا أن أهل الخلاء مازالوا يعانون من علّة قديمة قدم القِدْمة نفسها اسمها: العماء ! والبرهان أنهم مازالوا يعجزون عن التمييز بين ما هو حقّ وما هو باطل، بين ما هو خير وما هو شرّ، بين ما هو ظاهر أو ما هو خفيّ. ولو لم تكن لهم هذه العلّة لعنة خالدة لاستطاعوا أن يكتشفوا بيسر أن الطائر الذي يصفون ليس نفسه الطائرالذي يفتنهم بالغناء، ذلك أن الطائر الذي ظنّوه دائماً طائراً وحيداً هو، في الحقّ، لا يأتي النجوع إلاّ برفقة طائر آخر

هو له قرين. وكلّ ما تقوله القبائل عن طائر الغناء بشأن الحجم، أو اللون، أو المسلك أمر لا صلة له بطائر الخفاء، ولكنه يعني الطائر القرين الذي اعتادوا أن يروه بعيون العماء !

(٤)

مضى أهل الشكوك في تفسير أمر الطائر فقالوا أن كل جرم ينقسم إلى شطرين: أصل وظلّ. تكلموا طويلاً عن ماظهر في الخلاء وما خفي، وانتهوا إلى أن ظلّ الكائن هو مارأته عين الكائن ببصر العماء، وأصل الكائن هو ما خفي عن عين العماء، ولم يُدرك إلاّ بعين الخفاء. وأهل الصحراء الأشقياء الذين جاءوا إلى الصحراء بعلل لا يُرجى منها شفاء عجزوا عن التمييز بين العينين كما عجزوا عن التمييز قبلها بين كل النقائض الجسيمة .

ويُقال أن هذا الفريق كان أوّل من حذّر القبائل من فتنة طائر الخفاء عندما رأووا فعل أغانيه في النفوس، وسلطان لحونه على عقول أعقل العقلاء. كان الخلق يهبّ كلّه ويهرع إلى الوديان لسماع أناشيد الشحن العجيب. يهرع إلى الوديان الأكابر والأتباع والعبيد والرعيان والنساء والفتيان وحتّى أصغر الشبان. يأخذهم الطائر بالصوت فيمكثون في الأودية أياماً، وكثيراً ما ينسون أنفسهم هناك فيمكثون ما مكث الطائر الخفيّ، لا يأكلون، ولا يشربون، لا يتكلمون و لاينامون، فيصيبهم

الهزال، ويرجفون بحمّى الوجد والمسّ، وتستيقظ في صدورهم قبائل الجنّ التي ظنّوا أنهم قضوا عليها بتمائم الأولين إلى الأبد. تستيقظ القبائل المعادية في الصدور فيجدبون ويزبدون ويتمايلون.

ولكن الخراب الذي يصيب ما ملكت أيديهم في مثل تلك الأثناء يفوق الخراب الذي ينزل بأبدانهم: تختلي الذئاب بالقطعان في المراعي لتفتك بها، وتشرد الإبل إلى أراضٍ أخرى لتقع في أيدي قطاع الطرق ولصوص البعائر، وتهب رياح الخريف فيذهب العجاج الأحبية ويذهب بالمتاع، وعندما يعود القوم إلى أنفسهم في نهاية الأمر، يكتشفون أن الخفاء لم يعدهم إلى الصحراء، ولكنه رمى بهم إلى متاهات الخلاء لأوّل مرّة، وعليهم أن يفتّشوا عن سبيلهم من البدء .

هنا تدخّل الكهنة، ورأوا أن يتولوا الأمر بأنفسهم !

(٥)

طافوا القبائل، ولقنوا النذير بالنداء. قالوا أن طائر الفتنة ليس رسولاً من رسل الخفاء، ولكنه مكيدة جديدة من مكائد العدوّ الخالد ،وانتهيط، فليحترسوا، وليتعلموا إلتزام الحذر. قالوا، على لسان النذير، أن اللئيم القديم اعجزه إن يبيدهم بالمقتنيات، وآلمه أن يأخذهم بسلاح الإغواء، فابتدع حيلة الغناء ليفني

أجرامهم، ويبيد أبدانهم، ويهلك أوطانهم، لأنه اكتشف ضعفهم إزاء اللحون، وأدرك أن لا شيء يستطيع أن يفني أجسام الخلق مثل الغناء. قالوا أيضاً أن الساحر الخالد تخفّى في بدن طائر هذه المرّة، كما تخفّى قبلها في أجرام الحيّات، واستعار صوت الطير، وتسلّل إلى أودية الجوار ليسرقهم من أبدانهم ومن نفوسهم بسلطان الصوت، لأن اللئيم عرف سرّهم، وأدرك ضعفهم الذي ورثوه عن أسلافهم إزاء الصوت ولذّة الصوت، فقرّر أن يأخذهم بسلطان الصوت، فاحترسوا، ابتداءً من هذا اليوم، من كل صوت !

عمّ القبائل بلبال، وارتفع بين أهل العقل جدل، وطعن كثيرون في وصايا الكهنة، وقام فريق فتكلم بلسان الضدّ. قال فريق الشّك أن العرافين لا يريدون أن يكفوا عن الاستهانة بعقول أهل العقل، ولايملّون من ترديد أكذوبة اختلقوها قديماً ليسوقوا بها أمم الصحراء إلى الحياة برغم أن القبائل تعرف إنها ليست سوى إدّعاء مريب. واليوم يأتون أيضاً ليجرّوا القبائل عن الحق بعيداً، وليقولوا، إدّعاء أيضاً، أنهم يفعلون ذلك حرصاً على الملّة من الإنقراض، وهم أوّل من يعلم أنهم يمنعون الملّة من التنعّم بتوقها الأبدي في نبل الخلود، ولأنهم يعلمون أيضاً أن الكائن الذي لا يصير خالداً إلاّ إذا فقد جرمه ، لا يهمه أن يتخلى عن بدن الظلّ إذا كان سينال بالقربان جرم الضوء، جرم الخفاء،

جرم الأصل الذي لا يعرف الأجرام .

مضى أهل الشكوك في معاندة الكهّان إلى أبعد فاتهموا الخصوم بحرمان أبناء القبائل الأشقياء من اللذّة الوحيدة التي منّ بها الخفاء، وقالوا أن العرافين لا يحاكون قساوة ، وانتهيط، بتحريم الاستماع، والتمتّع باللحون، ولكنّهم يستعيرون دوره، ويتكلمون بلسانه، ويحفرون لأهل الخلاء تلك الهاوية القبيحة التي أقسم ،وانتهيط، يوماً أن يقودهم إليها. الكهنة ليسوا كهنة. الكهنة هم ،وانتهيط،.

(٦)

حملت رياح الشمال إلى الصحراء بالغيم كثيراً، فسالت الوديان بمياه سخيّة، وارتفع في قيعان الأحبية الصراخ الموجع لمواليد أفزعهم هول الميلاد، وأباد تلاحق الأيام أبداناً كثيرة، فهجعت في سفوح الجبال تحت أكوام الحجارة الرمادية، ولكن طائر الخفاء لم يكف عن الغناء .

لم يكف الطائر عن الغناء، و لم يكف العشاق عن نزول الوادي، ليخرجوا بالغناء من الوادي، ومن كل الأودية، ومن الصحراء كلّها، فيرون مالا يستطيعون أن يروه إلاّ بالغناء، ويسمعون مالا يستطيعون سماعه إلا بالغناء، ويحيون حياة أخرى لا يستطيعون أن يحيوها إلاّ بالغناء .

كانت أبدانهم تهزل، وتضمر، وتبيد، و.. تختفي. ولكنهم لا يرجعون إلى الوراء، ولا يريدون العودة إلى وطن الظلال، لأن مَنْ ذهب بعيداً، وارتاد أوطاناً أخرى خارج الخلاء، لن يعود إلى مملكة الخلاء، لن يعـود أبـداً إلى الأوطـان الـتي لا تُـرى إلاّ بعـين العماء !

٨

الحمامة الغربيّة

نحن مستوطنون في الجسد فنحـن متغرّبـون عـن الربّ، لأننـا بالإيمـان نسلك لا بالعين، فنتق ونُسبرّ. بالأوْلى أن نتغـرّب عـن الجسـد ونستوطن عنـد الربّ.

رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس

(١)

في العام الثاني تمادى الجدب، وحرق الجفاف والصّهد وغزوات القبلي تلك الأعشاب البائسة المتبقية من نعيم الأعوام السخيّة، فأقبل عليه الزعيم ..

أقبل الزعيم ودعاه لتفقّد سيول السحب العابرة في سهول الحمادة الغربية.

خرجا في عتمة المغيب راجلين، يسحبان جمليهما، ويدحرجان بنعليهما حجارة الطريق كما اعتادا أن يفعلا في الزمان القديم عندما يتنزّل على القبيلة الأمر الجلل الذي يقتضي جدلاً في خلوة. يخرجان وقتها إلى رحاب العراء مشياً على الأقدام، يهيمان في ظلمات الخلاء كشبحين من أشباح قبائل الجنّ، يصدمان بنعليهما الحجارة بعناد طفولي، يتبادلان الإيماء حيناً، يحتكمان إلى توريات الأولين حيناً آخر، وإلى لغة أهل العشق أحياناً، يسكتون طويلاً، طويلاً. يسكتون حتى يجزم جواسيس الجنّ أنهما لن يقولا شيئاً أبداً، يجزم جواسيس الخفاء أنهما لن يتفقا إلى الأبد، أو يظنون أنهما اتفقا سرّاً بلغة لئيمة لا يجري بها اللسان، لغة أعتاد دهاة الملّة الشقيّة أن يحتكموا إلى رموزها الخفيّة لإخفاء نواياهم الشريرة ضد سلالات أهل الخفاء. يداهمها الفجر في الخلوات، ولكنهما لا يعودان إلى الوراء إلاّ إذا

عادا بتميمة تكفي القبيلة شرّ البلاء، فينطح رجالات الجنّ جدران الغيران يأساً من نيل السرّ، وإعجاباً بدهاء الإنسان .

هذه المرّة أيضاً ساراً صامتين. سارا صامتين لمسافة طويلة جدّاً. دحرجا بنعليهما حجارةً كثيرة جداً. اكتشف الإيماء الذي تخفيه دحرجة الحجارة بالنعلين. أدرك سرّ اللغة التي لا تعترف باللسان، وتستهجن إشارات مقلة العين، وتستخفّ بعلامات السبّابة الحمقاء، لأنها تمضي في السكون بعيداً، وتغيب في وشوشات القبلي عبر أدغال اليبس، وتنوس في يمّ الفراغ بوجدٍ محموم، فتختلس النبوءة من الإيقاع المبهم. فوق عمامتيهما تدلى قمر ملفوف في قماط شاحب، راح يغدق على الخلاء بضياء شحيح .

في الضياء الباهت تمدد عراء صارم، مفروش بحجارة رمادية زادها بخل الضوء كآبةً وعتمة .

في السكون المذهل تحوّلت أبدان الكائنات سمعاً، فراحت تتحسّس على كائنات حوّلت أبدانها أيضاً إلى سمع. ولكن بعثرة الحجارة جرحت حياء السكون، وظلّت تستجمع الأصوات، وتشيّد بنيان اللغة في الأغنية .

عَبَرا سهولاً عارية، ونزلا وديااً تتشبّث بقيعانها جذوع أشجار ميّتة، وصعدا مرتفعات هجرها النبت، فوقفت فوق شعافها أنصاب الصلد وجلاميد الصخر بقامات تحاكي قامات

الطلح المكابر .

قال بلا لسان: ،ما أقسى الجدب يا مولاي. هل خُلق في الصحراء بلاء أقسى من الجدْب؟ ، سمع الزعيم يجيب أيضاً بلا لسان: ،لولا قصاص الجدب لما صارت الصحراء صحراءً. في الجدْب أيضاً لم يفُت الخفاء أن يودع سراً. سكت. قطعا مسافة أخرى. تكلّم بنفس اللغة التي لا صوت لها: ، ولكن الصحراء أنبل بلا جدب. اقتنص في جواب الزعيم استخفافاً عندما سمعه يتساءل: ، هل تريد أن تسفّه حكمة الأضداد وتبتدع للوطن ناموساً لم تره له السماء؟ .

سكت مرّةأخرى. اجتازا أودية وسهولاً، تسلّقا جبالاً نحاسية، ثم استوى العراء وتسامح وانطلق يتمدّد إلى الأبد. فوق الرقعة القاسية تدفق الضياء الشاحب، ومضى يطارد الإمتداد حتى استحال ظلمة حقيقية في نهاية الأفق. أضاف الزعيم كأن المسافات فقدت السلطان على الزمان فلم تستطع أن تقطع الحوار: ، لا يليق بالعرّاف أن يشكّك في نِعَم الضدّ وهو أعلم الناس بمزايا أمرٍ يراه البلهاء بلاءً ! .. تبسّم تحت اللثام. قال: ،فليغفر لي مولاي، ولكن أليس من حقّ العرّاف أن ينسى أنه عرّاف، فيتكلّم بلسان الدهماء من حين لآخر؟، سمع جواباً في صرامة السيف: ، هذا لا يليق ... تبسّم مرة أخرى. تكلّم بجواب جادّ: ، أعرف أننا لا يجب أن نستهين بالناموس حتى لو

كان اللئيم ، وانتهيط، هو أوّل من قدمه لنا على سبيل الهبة ».

سمع إيماء إستنكار في لهجة الزعيم عندما سمعه يقول بنفس اللغة التي لم يعرفها اللسان: « هل قلت وانتهيط؟ ». أجاب في الحال: « ألم يخبرنا الأوائل أنه أول من قال أنه لا يفعل خيراً لأنه يعرف أنه سيتحوّل شرّاً، ولا يفعل إلاّ الشرّ لأنه يعلم يقيناً أن ناموس النقائض سيحيله خيراً؟ ». قال الزعيم: « متى حقّ لأهل الغيب أن يسوقوا حيل اللئيم على سبيل البرهان؟ ». أجاب: « لم يسق العرّاف برهاناً، ولكنه أعاد على سمع مولاه ماورثه عن أجداده الأولين ». قال الزعيم: « العرّاف أول من يعلم أن اللئيم كذوب في القول حتى لو صدق في اللسان، فأين العقل؟ ». أجاب: «خطيئتي، يا مولاي، أني أردت أن أتحرّر من هذا الوزر قليلاً (الذي سميته عقلاً) لأنعم بهدوء البال كبقية الدهماء في القبيلة ». كرّر الزعيم: « هذا لا يليق » ودحرج حجراً بصدمة غاضبة .

(٢)

قطعا مسافات أطول .

تساءل الزعيم فجأة: « هل تدري لِمَ أردتك أن ترافقني إلى الحمادة الغربية؟ ». أجاب: « أحسن قراءة الغيب، ولكني لم أحسن يوماً قراءة نوايا مولاي ! ». ولكن الزعيم تجاهل الدعابة

وتكلّم بصرامة كانت دائماً من سيماء الزعامة: « كنت دائماً إلى جواري؛ فلم استكن إلى إنسان كما استكنت إليك، فكنت لي سنداً، لم أبح بسرّ لمخلوق سواك، فلم تخن ثقتي يوماً، كنتُ وحيداً، وكان يمكن أن تكون وحدتي مميتة لولا وجودك إلى جواري؛ شككت دائماً أن يكون لما سمي صديقاً تحت قبّة السماء وجودٌ حقّ، ولو لم يقل لي مسلكك أن الصديق يجب أن يكون قريناً أو لايكون، لأيقنت أن الخلّ أكذوبة من أكاذيب كثيرة نختلقها ونعتنقها لنخدع بها أنفسنا. فكيف لا تريدني أن أختارك رفيقاً في العبور إلى ربوع الحمادة الغربية أنت الذي كنت لي في الخلاء قريناً؟ ». أجاب بامتنان: «حاولت أن أكون عند حُسن ظن مولاي، وهو أمر ظننته ديْناً في رقبتي، فإن أفلحت فليسمح لي مولاي أن أجاهر بابتهاجي ». تساءل الزعيم: « هل تبتهج حتى وأنت تعلم بأهوال السفر إلى ربوع الحمادة الغربية؟ ». أجاب: « في رفقة مولاي شيء يفوق البهجة، في رفقة مولاي شيء أكبر من السعادة، في رفقة مولاي كنز لا تنافسه في صدر العرّاف إلاّ النبوءة ! ». عاد الزعيم يتساءل: « هل أنت على يقين؟ ». أجاب على السؤال بسؤال: « هل يشكّ مولاي في صدق ما أقول؟ » . ولكن الزعيم قال بحزن: « لم ألحّ في السؤال من باب الشكّ، ولكن لعلمي بكراهة أهل القبيلة السير في سبيل الحمادة الغربية، فلم أشأ أن أحملك على أمرٍ لا يجد هوى في نفسك. »

دحرج بنعله حجارة، تبسّم تحت لثامه الأسود مرّتين. قال: « لا أعرف أن سبيل الحمادة الغربية له في قلوب أهل القبيلة سمعة أسوأ من سمعة سموم حيّات الأدغال، كما أعترف أيضاً لمولاي بأنه لم يجد في نفسي إلاّ الكراهة أيضاً برغم قناعتي الخفيّة بأنه ليس بالسوء الذي نراه له، بل كثيراً ما ذهبت إلى أن سوءه لا يكمن في الأهوال التي نلصقها به، ولكن سرّ هيبته تكمن في جهلنا به. وما دام مولاي قد اختارني لصحبته في السبيل المجهول فكيف أرفض رفقة هي شرف خصّني به؟ ». قال الزعيم: « لا أريدك أن تفعل ذلك من أجلي، لأن السفر إلى الحمادة الغربية هو الرحلة الوحيدة التي ينبغي على الإنسان أن ينطلق في سبيلها تلبيةً للنداء، لا استجابة للوفاء نحو القرين. ». قال: « هل يظنّ مولاي أن قراءة الأنباء في عظام القرابين عمل أهون من الخروج إلى وطننا في الحمادة الغربية؟ » أجاب الزعيم: « لم أستهن بأخطار النبوءة يوماً ». تكلم عن أهوال النبوءة بنبرة حزن لم تدنّسه عضلة اللسان: « ألا يدري مولاي أن العرّاف يطوف الصحراء، ويعبر الحمادة الغربية مرات، قبل أن يبلغ سماء النبوءة؟ ». أجاب الزعيم بحزن أيضاً: «لم أشكّ في ذلك يوماً.. » قال أخيراً: «يستطيع مولاي أن يتأكد أن من أختاره للسير إلى جواره في السبيل هو إنسان عرف السبيل، وعاد من ربوع الحمادة الغربية مع كل نبوءة». ردّد الزعيم بجلال: « لم أشك في ذلك يوماً.. ».

(٣)

لم يتزحزح القمر عن عرشه السماوي شبراً. لم تتبدّل سيماء المدى مرّة. لم يبشّر الأفق بنهاية المطاف أخيراً. مضى القرص معلقاً فوق رأسيهما، ومضى الخلاء ينجب الفراغ وراء كل فراغ، ويلد التلال عقب التلال، وينبت جبالاً بعد الجبال، ويطرح سهولاً تلو السهول، ويشقّ الأرض بالأخاديد والفجاج والوديان والشعاب. يقطعان الهاويات عرضاً، فتبتلع المسافة الشقوق الهائلة، ويخلفان الأفواه خلفهما لتصير جزءً من الأفق المضاد، ولكن المدى لا يستسلم، والأخاديد الظلماء لا تنتهي. تأتي من طريق الشمال، تهوي من قمم المرتفعات البعيدة، وتمخر التراب لتصنع بسيول الماضي طريقها إلى الأحاضيض الجنوبية لتصب في مياة البحيرة الكبرى التي قامت على ضفافها «واو» يوماً. تشكّى بعد صمت استمرّ طويلاً جدّاً: « ما أطول المسافات! ما أعظم الصحراء! تُرى متى يدرك العابر غاية؟ ». ردّ الزعيم: « قدر العابر أن يستسلم للسبيل. قدر العابر أن ينسى المسافة. ترياق المسافة الوحيد هو النسيان ». تعجّب: «ألاَ يحلم العابر بنعمة الوصول يوماً؟ ». تساءل الزعيم: « وما نفع أن يحلم العابر بنعم الوصول إذا كان يجد في العبور لذّة؟ ألن يصير العبور في هذه الحال غاية العابر؟ ». استسلم لحجّة الزعيم: « صدق مولاي. نسيت أننا أمّة عابرة. نسيت أننا سلالة قدرها العبور.

سلالة لا تريد أن تهنأ بالوصول لأنها تعلم أن الوصول قيد، وتعبر السبيل لأنها وجدت في العبور الحياة من قديم. ولكن علّة مخاوفي، يا مولاي، هو الخشية من التّيه، وليس الطمع في الوصول». دحرج الزعيم حجارةً، تلاحقت الحجارة عبر المدى لتبدع إيقاعها الغامض. تكلّم الزعيم: «ولِمَ على العابر أن يخشى التيه إذا كان لا يرى في الوصول غاية؟ ألن يكون العبور ساعتها تيهاً في تيه؟». أجاب: «أوافق مولاي، ولكن يعرف مولاي أيضاً أن أهل الصحراء لا يخشون بلاءً كما يخشون التيه. ونصف التمائم المعلّقة على صدورهم أُعدّت للوقاية من بلاء التّيه». علّق الزعيم: «أهل الصحراء لايطلبون إلاّ ما يخشون، ولا يعشقون إلاّ ما يكرهون، ولا يطلبون الحماية إلاّ ممن يخافون. ألا يرشقون على بيوتهم أعواد «تورها» لتحميهم من شرّ العين برغم علمهم إنها شجرة مسكونة بقبائل الجنّ؟». ألا يرون في الجنّ أعداءً، ثم تراهم يهرعون لمساعدتهم عندما يريدون أن يعرفوا أنباء أقرباء غابوا في الأسفار طويلاً؟». تبسّم تحت اللثام الأسود مرّة أخرى. قال: «صدق مولاي. هذا حال ملّة العابرين دائماً، وأغلب الظنّ انهم تعلّموا أن يروا في الأشياء ضدّها لاعتناقهم تعاليم «وانتهيط» الذي علّمهم السّحر، وزيّن لهم قدرة الباديات على التخفّي وراء لثام مستعار». وافقه الزعيم: «اعترف لك اليوم أني من أكبر المعجبين بحجج هذا اللثيم برغم يقيني أن تحذيرات

الناموس من مكائده لم ترد عبثاً». تبسّم. تساءل بخبث: «هل كان مولاي يستطيع أن يجاهر بهذا الرأي في ذلك المكان الذي توسط فيه مجلس العقلاء؟». اختلس نحوه نظرة، ولكن الزعيم لم يتأخر بالجواب: «وهل يستطيع المرء أن يجاهر بما يراه صواباً بعد أن سلّم رقبته للخلق، وارتضى أن يضع نفسه في أصفاد السلطان؟ أنت أول من يعرف أنّي كنت في محاربة سلاسل الزعامة صادقاً. ولكني استسلمت أخيراً لا نزولاً عند رغبة الأكابر كما يظن البلهاء، ولكن تلبية لمشيئة أقدار جعلتني ابن أخت سلفي الوحيد. واليوم، بعد أن فكّت نفس الأقدار قيدي، ووضعت قدمي في السبيل الذي لا سلطان عليه من الخلق، أو من تتابع الأيام، فإني لن أخفي عليك بهجتي بالتخلّي. أوه يا خلّي القديم، أنت لا تعلم أن التخلّي كنز لن يعرف لذّته إلاّ من جرّبه. التخلّي ناموس السائرين في طريق الحمادة الغربية، فأصبر حتى تجرّب، ثم جئني بخبر المتعة بلا استحياء! هل يظن قريني أني سأختار رفيقاً سواه لو لم اكتشف أن التخلّي هو «واو» التي أعيتنا سبل الصحراء بحثاً عنها؟ فإذا كنت قد رأيت في الزعامة لعنة لم اخترها، وجاهرت بهذا الرأي دائماً، فإني أجسر على القول (من سماء التخلّي) أن الزعامة هي ألف الف لعنة، والسلطان بلاء لا يختلف عن أيّ وباء، فاعترف لك اليوم بأني في ذلك الزمان لم أكن لأستطيع أن أجاهر بالرأي في شأن «وانتهيط» فحسب،

ولكني لم أكن استطيع أن أهرش رأسي في المجلس دون أثير استنكار العقلاء ! فهل تستنكر عليّ اليوم التغنّي بالتخلّي؟ ».

سكت مسافة قصيرة. استعاد الحوار. قال كالمستدرك: « بدأنا بالتّيه، ولا أعرف كيفَ انتهينا إلى سيرة التخلّي». ردّ الزعيم بنفس الحماس: « ألا يرى الخِلّ أن التّيه وجه من وجوه التخلّي؟ ولكن احترس أن تدمج التيه بالتخلّي في وعاء واحد، لأن السماء شاءت أن ترفع التخلّي عن التيه درجات لكي لا يطمع في نيله ضعاف النفوس ». تخلّى عن الخطاب، وتكلّم كمن تذكّر شيئاً نسيه طويلاً: « ولكن ألا يرى مولاي أن الأوان قد حان كي نبيت ليلتنا؟ ». أجاب الزعيم بلا مبالاة: « ولِمَ علينا أن نبيت الليل إذا كنّا لا نشعر بالتعب؟ ألم يعلمنا الأسلاف أن أنبل الأسفار هي السفر ليلاً؟ ». قال بلهجة فضحت شكوكاً: « ألا يُخيّل لمولاي أن ليل السبيل لا يريد أن ينتهي؟ ». أجاب الزعيم في الحال: « هذا ليل السائرين في سبيل الحمادة الغربية. لو لم يكن الليل في الحمادة غالباً لما أطلق عليها الأولون إسم الحمادة الغربيّة. فتعلّم أن تنسى نهارات القيظ، وأنعم بليالي الأقمار الأبديّة ». لم يمضِ بهما السبيل بعيداً حتى فاضت في صدره شكوك أخرى: « أردت أن أنبّه مولاي إلى أمر منذ بدء المسير، ولكني لسبب ما نسيت، وها أنا اكتشف الآن أننا نسير منذ زمن بلا زاد وبلا ماء، فهل يستطيع العابر أن يغفر لنفسه هذه

الخطيئة؟ ». أجاب الزعيم بسؤال: « هل أحسّ القرين بجوع أو عانى من ظمأ؟ هل يضير العابر أن ينسى الزاد والماء إذا تحصّن من الجوع ومن الظمأ؟ ألا تعلم أن أهل السبيل قوم لا يحتاجون لأن يحملوا زاداً أو ماءً؟ ». لم يخف دهشته: « الحقّ أني لم أعرف جوعاً، ولم أحسّ ظمأً، وإن وُجد تحت قبّة السماء ما يمكن أن يصيبني بدهش، يا مولاي، فهو عدم حاجة عابر صحراوي لزادٍ أو ماء. » صدم الزعيم حجارة كثيرة، وهرس عليّقاً كثيفاً يابساً، قبل أن يجيب: « لا يعرف السائر في طرق الحمادة الغربية الظمأ لأنه لا يعرف الشموس ولا النهارات، ولا يناله الجوع، لأنه تخلّى عن رقعة الخلق لأبناء الخلق، فدع مكان الباطل لأهل الباطل، وامضِ معي إلى المكان الذي أغدقت عليه السحب العابرة من غيثها السخيّ!» قال كأنه يبتهل: « هل يعد مولاي أن يبلغ بنا غيثاً ينسنا من نيله أجيالاً؟ ». تكلّم الزعيم بوعد لم يمسسه دنس اللسان: « لو لم يكن اليقين لي تميمةً في وجود الغيث لما جرؤتُ على اختيار الخلّ الوحيد للرفقة ! ».

(٤)

مسّ العراء تبدّل .

لانت سيماء الأرض، وبدأت الصحراء تتخلّى عن صرامتها وكآبتها ولونها الرمادي، فتبدّت رقع طينية بهيّة،

مكسوّة بنثار حصباء شاحبة، تنتشر على امتداد مساحات دائرية شاسعة، تفضي إلى رواب هزيلة الارتفاع، ولكن شعافها مفروشة بأحجار تختلف عن صورة الحمادة الشرقية: لونها أكثر ضياء، وحجمها أصغر، وسحنتها أكثر وداعة وتسامحاً. مساحات الحصباء تؤدي أيضاً، في أمكنة كثيرة، إلى وديان هزيلة الأحاضيض، قريبة القيعان، قال له الزعيم إنها بنات الأرض التي تجمع أمطار الجبال الشمالية لتحملها إلى وديان الحمادة الغربية. في هذه الشعاب الضحلة لم يعثرا على لعاعات النبات فحسب، ولكنهما وجدا رقعاً مغمورة بالأوحال، وأراضٍ طينيّة أخرى مازال يفرّ منها الماء، وفي القيعان المفروشة بألواح الحجر تلامع السلسبيل تحت ضياء القمر، واكتشفوا أن الماء مازال يجري. هتف الدليل: « ها قد بلغنا شطآن السحب العابرة أخيراً ! ». أضاف الزعيم قائلاً إن لأرض الحمادة الغربية خصالاً لم تهبها الصحراء لأرضٍ سواها. فهي ترتفع فوق سطح العراء طبقات، وتنعم طوال العام بمناخ أكثر اعتدالاً من مناخات أركان الصحراء الأربع، في سمائها صفاء أبدي، والأمطار لا تنزل ساحتها، ولكنها تأتيها من المرتفعات الشمالية البعيدة بوساطة الوديان والشعاب والأخاديد. الشعاب والأخاديد السطحية تروي السهول القريبة، أمّا الوديان فتحمل السيول إلى الصحاري السفلى، فلا تكتفي بالجود على الأرض، ولكنها تختزن في الغيران

والكهوف بمستنقعات هائلة تردها الأنعام طوال أشهر الصيف، وتؤمّها قوافل الظامئين والعابرين وأهل السبيل. وكلّ ما زاد عن حاجة هذه الغيران العميقة من السائل النبيل، فإن طبيعة الأرض التي تستلقي جنوباً في هجعتها، تأبى إلاّ أن تجود به على هاويات البحيرة الكبرى في أقصى الصحراء الرملية. لهذا السبب يقول الصحراويون أن صحراء « زلاّف » الرمليّة هي أغنى صحاري الصحراء بالمياه، ولا يملّون من تكرار أمثولة صارت على ألسنتهم حكمة دهرية وهم يؤكدون أن الخفاء وحده يعلم ما تخفيه الصحراء الرملية من كنوز.

ازداد سخاء العشب في قيعان الشعاب، وفي مسافات أخرى ازداد اللعاع كثافة فتحوّل حشائش حقيقيّة. ولكن السهول المديدة، والوديان العميقة لم تُجد بنصيبها إلاّ بعد أن اجتازا فجاجاً كثيرة.

في أعماق الوديان ازهر الرتم، واخضرّت قمم الطلح، وأينعت أغصان السدر، وامتصت الشجرة الظمأى من المياه نصيباً وفيراً من المياه حتى اخضرّت فيها الأشواك، ولانت أطرافها المدبّبة التي تشبه حُمّات العقارب. من الأحراش فرّت «مولا - مولا» وتغنّت طيور أخرى بالنبوآت في عمامات الطلح، وزقزقت الفراخ في أدغال الحشائش بنداءات جماعيّة.

السهول الواقعة بين فجاج الوديان اكتظّت أيضاً بالنبات،

وارتفع عبير الزهر في الفراغ فغزاهما بأريج غلب عبير الرّتم في الوديان، فكان يزيح طرف اللثام عن فتحتي الأنف، ويستنشق النكهة السخية حتى يصيبه الدوار، تدمع عيناه أيضاً، ويتعثرّ في خطوة، فيسرع لشدّ اللثّام إلى الأنف من جديد. في السهول المفروشة بالعشب لم تنتقل أفواج الطير فحسب، ولكن قطعان الغزلان كانت ترتع في كل ركن، تركع فوق الحشائش، تتعمّد أن تختطف بتلات الزهر، وترفع رؤوسها الموسومة بالبياض لتسرح ببصرها بعيداً وهي تتلذذ وتمضغ. في طرف السهل الحنى تيس، يشيّع على رأسه قرنين مستقيمين عاليين، وراح يخدش الأرض الطينية بحافره. أزال قُلاعاً ارتفع عن سطح السهل شبراً، ومدّ خطمه المخطط والتقط حبّة الترفاس. قضم نصفها، وترك النصف الباقي مغروساً في جوف التراب. هتف الدليل: « أراهن أننا سنعثر على الترفاس أيضاً ! » .

ولكن نكهة الكمأ كانت قد عرفت طريقها إلى أنفه قبل أن يسمع هتاف الزعيم. أزاح اللثام عن فتحتي الأنف مرّة أخرى. ناح كالمجذوب، ثم أطلق آهة طويلة، موجعة تشبه آهات النزع الأخير في صدر عليل يعاني سكرة الاحتضار. ركع أرضاً، استخرج الكمأة بسبابته، رفعها إلى أنفه، فاطلق آهة أخرى أشدّ طولاً من الآهة الأولى .

بين نباتات الفصيص دسّ الطير أعشاشه ليخفي الفراخ عن

أيدي العابرين. في الطفولة جرّب أن الطير لا يتعمد إخفاء الفراخ وحدها بهذه الحيلة، ولكنه يفعل حرصاً عن حماية العشّ نفسه. فإذا أُكتشف العش، ووجد الطير أن يداً قد لامسته، هجره إلى الأبد، وطار إلى البعد ليبحث عن مكان لن تصله يد الخلق. في الطفولة اكتشف أن الطير لا يضحّي بالأعشاش الخاوية فحسب، ولكنه يترك البيض أيضاً إذا وجد أن يد الأنام قد مسّته، فيحوم حول العش أياماً، ويكف عن الغناء طوال أيام الحداد، ثم يهاجر إلى أرض أخرى، لا أثر فيها لجنس الدنّس .

(٥)

في رحاب هذه السهول ارتفعت أكوام الحجارة، وتكاثرت أضرحة الأسلاف. تكلّم الزعيم ببشارة لم تدنّسها عضلة اللسان: « أعدك بأننا سنبلغ الوطن قريباً » . تساءل بإجلال: « هل وجود أضرحة الأوّلين علامة على قرب الوطن؟ » . قال الزعيم: « ستسير منذ الآن في حقول أضرحة لن تنتهي، لأنك تعلم أن الحمادة الغربية هي أول صحراء نزلها الأجداد القدماء عندما أقبلوا من جزائر البحر المحيط فراراً من الغرق » . قال بتسليم: « هذا ما سمعناه من أهل الناموس حقّاً. ولكن هذه رواية واحدة من روايات ثلاثة يا مولاي. لأن الرواية الأولى تقول أنهم نزلوا الصحراء امتثالاً لأمر النفي من وطنهم الأول في السماء،

والرواية الثانية أكدّت أنهم أقبلوا على الصحراء بعد أن أضاعوا «واو»، والرواية الثالثة هي التي قالت أنهم أقبلوا من جزائر البحر بعد أن ابتلع المحيط مدنهم المعلقة بين القناطر. فأي الروايات نصدّق يا مولاي؟». أجابَ الدليل: «ما يهم في الأمر هو الإيماء وليس الروايات. وأنت ترى أن الروايات كلها تجمع على وجود وطن أول للسلالة سبق الأوطان كلها، وتجمع أيضاً على نزول غضبة سماوية أو لعنة أخرجتهم من الوطن الجليل، فهاموا في الأرض ليصير لهم الحنين إلى الوطن الأمّ داء لم يجدوا له ترياقاً منذ ذلك اليوم».

قطعا مسافة أخرى. تمادى العشب، وازداد الشجر كثافة، ونفثت الأزهار في الفضاء ريحاً شجيّاً. في السهول تراكضت الغزلان، وفي المساحات الواقعة بين السهول والأودية تسكّعت الضباب، أمّا عند حدود الروابي فتصدّت لهم قطعان الودّان.

تعجّب وتساءل: «لا أعرف كيف يطيق أهل الحمادة الشرقية أن يعانوا من الجدب، ويهلكوا من الجفاف، وبجوارهم ترقد بساتين تكفي لإطعام عشرات القبائل». قال الدليل: «هناك يتخفّى أول سرّ. العابر وجد نفسه يدب في الحمادة الشرقية، فاستمرأ الأمر، وظنّ أنه يسعى في فردوس الوعد، واقنع نفسه بحكم العادة، أنه سيهلك حتماً لو جرؤ على الخروج غرباً، لأنّ قدمه لم تطأ أرض الحمادة الغربية، و لم يعرف طبيعتها إلاّ من

روايات السابلة، ومن وساوس أهل الخفاء، ومن أفواه الرسل الكذبة، فكيف تستطيع أن تنقذ ملّة ترفض أن تجرّب الخروج؟ كيف ينجو قوم لا يريدون أن يروا أبعد من أنوفهم؟ ذلك يذكّرني بعبد أردت أن أكرمه فاعتقته، فهل تدري ماذا كان جوابه على العطيّة؟ رمى بنفسه تحت قدمي، وقبّل نعلي باكياً، وقال أن الحرية عبء لم يخلق لمن اعتاد العبودية لأنه لا يعرف ماذا سيفعل بنفسه إذا خرج من بيتي، وانتهى إلى القول أنه لم يبق له إلاّ أن يشنق نفسه إذا رفضت التراجع عن قراري». ردّد باستنكار: «ما أقبح هذا يا مولاي. الآن فهمت لماذا كُتب على قبيلتنا الزوال». أيّده الدليل قائلاً: «صدقت. عشيرة بهذا الطبع لا تستحق إلاّ الزوال!».

(٦)

في وديان المسافات التالية تدفقت سيول سخيّة. انحسرت المياه عن الشطآن، ولكن الضفاف الطينية احتفظت بالنداوة، فغرقت أقدامهما في أوحالٍ رجراجة. وجدا طُرقاً عبر أحجار تعلّقت بالسفوح، فصعدا سطوحاً مالبثت أن استوت في سهول مفروشة ببقع زركشتها ألوان الزهور. في الفراغ تنادى الطير بأعانٍ كزغاريد الصبايا، وصدمت قطعان الغزلان بدن الأرض بحوافرها استنفاراً، ورافقتهما أضرحة الأسلاف على سيوف

المرتفعات وظهور الروابي حتى أوقفتهما في مواجهة قمّة ينبثق منها النبع. تكلّم الدليل: « عليك أن ترتوي من ماء النبع إذا شئت أن تتحرّر من الوزر القديم ». تساءل بدهشة: « عن أي وزر يتحدّث مولاي؟ » . أجاب الزعيم: « ألم تخبرني عن توقك في التخلّص من عقال العقل؟ ». تساءل: « لا أنكر أن هذة النيّة راودتني كثيراً، ولكنها وسواس عابر، لأننا قوم لا نتحرّر من أي شيء بيسر، ونرى في الخلاص من العقل، يا مولاي، قصاصاً قاسياً » . هتف الزعيم: « ها أنت تتشبّه بأمّة الحمادة الشرقية فتتشبّث بأغلال العبودية ! » . بدأ يرتجف. قال: « رأينا في العقل الحياة، ربّما لأننا لم نجرّب حياة بلا عقل » . قال الزعيم: « ها أنت تفوز بمفتاح السرّ، ولم يبق لك إلاّ أن تمضي خطوة أخرى لتفتح بابه » . إزدادت الرجفة. توسّل: « ولكن النسيان قاسٍ يا مولاي. النسيان أقسى من الزوال ». تقدّم منه الزعيم. مال على أذنه قائلاً: « هل يضيرك أن تنسى أهل الحمادة الشرقية وأهوال الحمادة الشرقية؟ هل يضيرك أن تنتقل من أرض الجدب لتحيا في وطن لا يعترف بالمكان لأنه تحرّر من سلطان الزمان؟ ». غزت البدن حمّى. عاد ينتفض برجف عنيف. رفع صوت الشكوى: « النسيان داء يا مولاي. النسيان هول يفوق الوباء يا مولاي ! ». عاند الدليل: « العلّة المميتة لها ترياق مميت. ولن تنال الحياة ما لم تفقد وهماً ظننته دائماً حياة، فاحترس ! » . ركع الزعيم على

النبع. مضى الماء يفرّ من شقّ في الصلد. ماء صافٍ كدمع العين، يتلاحق عبر الفراغ في ألسنة دائرية تلتئم حيناً، وتتباعد حيناً، فترسم في الفضاء قوساً شقيّاً، ثم تهوى إلى أسفل لتلامس صلداً سفلياً فتنثر على الشطين الرذاذ، وتغمر خضراء الدمن التي تعلّقت بضفتي المجرى. أزاح الزعيم اللثام عن فمه، ملأ يديه من الغمر السخيّ فتألقت حبيبات الرّذاذ، وفاضت من الراحتين كقطرات الدموع. رفع الراحتين إلى الفم المستور بشاربين كثّين غزاهما بياض شامل، وفي الأسفل تكاثفت لحية أشدّ بياضاً، فارتفعت شعيرات إلى أعلى لتشتبك مع الشاربين فتستر الشفتين تماماً. تجرّع. تجرّع بمهل الأكابر، ونهم الدهماء، ففاضت مقلتاه بتسليم عميق، ورأى في الحدقتين ألقاً كدمع الفرح. في العينين ابتسامة. لم يضبط البسمة على الشفتين المستورتين بأحراش الشّعْر الناصع، ولكنه التقط البسمة في العينين كما اعتاد أن يلتقط النبوءة في شرر الإيماء. كان يبحث عن سرّ الإيماء عندما وجد حفنة الغمر تلامس شفتيه أيضاً .

أطلق زفرة عميقة، قبل أن ينهل من غمر الراحتين جرعة .

٩

النسيان

« نحن مستوطنون في الجسد فنحن متغرّبون عن الرب، لأننا بالإيمان نسلك لا بالعيان، فنثق ونُسيرّ. بالأولى أن نتغرّب عن الجسد ونستوطن عند الربّ ».

رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس

(١)

تنقّل النبأ على ألسنة أهل الفضول مبكراً .

استيقظت القبيلة فسمعت أن العرّاف قد أُصيب البارحة بداء النسيان. قبل أنه طرد الأَمَة من البيت، وجلد عبده بالسوط، وأمر الرعاة أن يأتوه بالبعائر لأنه قرّر أن يهجر ربوع القبيلة ويسافر للإقامة في الحمادة الغربية. مع حلول الضُّحى اشتدّ الهرج، وتراكض الصبيان بين المضارب، فخرجت النساء من الأخبية للفرجة، وترك الرعاة قوافل البعائر، وعادوا على أعقابهم ليستفهموا من الخدم عن النبأ، وليشبعوا نهم الفضول. وكان على العقلاء أن يشاهدوا العرّاف بأنفسهم وهو يركض وراء الفتيان والدهماء حاسر الرأس، يلوّح بركيزة الخباء في الهواء مهدّداً، وروى آخرون أنهم رأوه يقضي حاجته بين المضارب حاسر الرأس أيضاً، ومن هناك انطلق ليلج الخباء المجاور بدل أن يعود إلى بيته، وادّعت الأَمَة الشقيّة أنه طردها لأنها رفضت الإمتثال لرغبته المخجلة عندما داعبها وأراد أن يعاشرها، وردّدت خبراً ما لبث أن انتشر وردّده خلفها كلّ لسان: « إِمَسْكَلْ. آها ضَغْ آرْ إِمَسْكَلْ. آواغ وجَغ آمغار وانزّيغْ » *

---

* (استُبدل. أقسم أنه استُبدل. هذا ليس العجوز الذي أعرفه) .

استمر الهرج .

أدرك الصبيان أن العرّاف فقد عقله حقاً، فقرروا أن يتسلوا. استفزّوه بتلك الحيل التي اعتادوا أن يستفزّوا بها المجانين والمصابين بداء الوحْد. فكّان يلاحقهم بالسباب حيناً، ويركض وراءهم ملوّحاً بالركيزة حيناً آخر .

تنادى العقلاء. تراسلوا بواسطة الخدم والرعاة والفتيان، ولكن البطل سبقهم جميعاً، وكان أول من انتهر الغوغاء وفرّقهم، وطوّق العرّاف الهائج بذراعيه. احتضنه طويلاً. ثم انتزع الركيزة من قبضته، وحمله بين يديه ككوم من الثياب ووضعه في ركن الخباء الذي انهار في المركز بعد أن أُنتزعت منه الركيزة. أعاد «آهلّوم» الجذع إلى موقعه، وأمر أحد المارّة أن يأتيه بالحكيم والعطار معاً .

قبل أن يجيء الحكيم أو العطّار أقبل على الخباء الأكابر. جاؤا يتقدمهم المعمّر «أمّامًا» ، ويتبعهم ، بعد مسافة أخرى، «إمسوان وانضرّن». التأموا في تلّة عند المدخل. تقدّم المعمّر نحو المُصاب خطوة. انحنى إلى الأمام ليتفحّص الكاهن القديم. اسند يديه، الخشبيتين الموسومتين بشبكة العروق، بهلال العكّاز، وتفقد بعينيه الصغيرتين وجه القرين. كان رأس العرّاف حاسراً، تتوّج شعفته صلعة نحاسية صارمة، على الصدغين نبتت شعيرات هزيلة، مفلفلة، غزاها البياض. البياض فاض فغزا اللحية أيضاً في

الأسفل، وغمر شاربين مفلفلين أيضاً تتناثر فوقهما حبيبات الغبار. على جانبي الرأس نبتت أذنان طويلتان حتى تدلتا إلى أسفل من فرط الطول. أذنان منفرتان شبيهتان بأذني جحش. أمّا شقّ الفم فكان أبشع: ينطلق من أقصى مكان، ينطلق من تخوم الحنك، يحرث صدر الوجه، يشطر عرش البهاء في القلب بجدول قبيح شبيه بعورة المرأة، يحفر في سحنة البدر الهاوية التي لا تشبع، الهاوية التي كانت سبباً في إخراج الجدّ «منداه» من الوطن، لأنها ابتعلت فاكهة الحرام، فلم تكف عن إلتهام فواكه الحرام منذ ذلك اليوم. لم تشبع منذ ذلك اليوم. فهل أخطأ الأسلاف عندما رأوا فيها عورة، واختلقوا اللثام ليخفوها عن بعضهم البعض ؟

لم يتوقف الشقّ الكريه إلاّ بعد أن اخترق الجوهرة ليشوّه الوجه كلّه. التأم بالحنك الآخر في أبعد مسافة، فدمغ الإنسان بوسم الإثم. لم يخطىء الأجداد عندما رأوا العورة في الفم فسترها باللثام .

قال «أمّامًا»:

– هذا ليس العراف الذي نعرفه .

حدّق في وجه الكاهن مرّة أخرى. التفت إلى أقرب رجل:

– هل تستطيع أن تتعرف على رجل لا يستر رأسه باللثام؟

استنكر «إمسوان وانضرّن» الأمر بهزّة من عمامته وطأطأ رأسه أرضاً .

قال ,أمّامًا, يخاطب البطل ,آهلّوم,:

– لم أحسن يوماً التحدّث إلى رجل لا يستر وجهه لثام.

علّق , أماسيس, :

– ما أقبح الوجه إذاً لم يستره اللثام !

أومأ المعمّر للبطل :

– استروا وجهه في الحال !

أومأ البطل لعبد يقف بقرب الخباء، فأقبل المملوك مهرولاً كأنه كان ينتظر الإشارة. همس في أذنه فقفز إلى زاوية الخباء وعاد من المتاع بلثام أسود. بدأ يلفّه حول رأس الكاهن في حين تحلّق الأكابر في الداخل. ولكن ,آهلّوم, ظلّ يقف بجوار العراف ويتابع إلتواءات اللثام الأكحل حول رأس الكاهن المسكين. كانت أنامل المملوك تتسلّل بخفّة الريح بين ثنايا الكتّان، تطوّق الرأس عمودياً في البدء، فيتهدّل القماش على الجانبين، يسحب اللّفة إلى الناحية الأخرى، ويمسك الطرف الآخر إلى جوار فتحة الفم بالضبط، يثبّت القطعة على الفم بسبّابته، ويحتطف الكتلة بيده اليمنى، ليحيط أسفل الوجه أولاً، ثم يرفع الذيل إلى أعلى، يلفه على قمة الرأس مرّتين ليضع للعمامة أساساً، ثم يتسلل بين الثنايا بأنامل يده الأخرى ليختبر ثبات الرباط دون أن تتوقف يده الأخرى عن جرّ الكتّان حول الرأس. تضاءلت لفة القماش التي كانت تتكوّم تحت الأقدام كالثعبان، وانتقلت لتطوّق الرأس

في عمامة مكابرة أعادت للمجلس العرّاف القديم.

أجلس , آهلّوم, صاحب العلّة أمام المجلس، وأخذ مكاناً بالجوار. تسائل ,أمّامًا,:

– ألا يمكن أن يكون الأمر كلّه مسّاً في مسّ ؟

قال , أماسيس, :

–يمسّ الجنّ أبناء القبيلة كلّ يوم، ولكننا لم نعرف ممسوساً يتعرّى من اللثام، ويدخل بيوت الأغراب، وينازع الصبية في الخلاء !

أوضح ,أمّامًا,:

– للمسّ وجوه كثيرة، وأفعال أهل الخفاء درجات !

تدخّل ,إيمسوان وانضرّن, :

– حملتنا الصحراء على ظهرها أجيالاً، وصارت لها عظام أجدادنا طعاماً منذ أجيال، ولكننا لم نسمع بعرّاف مسّه الجن، كما لم نعثر في حياة السلف على سيرة عرّاف أصابه أهل الخفاء بمسّ !

نال تأييداً بهمهمة جماعية .

تكلّم ,أغوللّي, لأول مرة :

– صدقت. تروي السير أن الجنّ لا يخشون شيئاً كما يخشون الكهنة. وقد سمعنا كلنا في السير أيضاً أن الكُهّان هم ملّة لا تختلف عن ملل أهل الخفاء كثيراً .

قال ، أماسيس، بلهجة يأس :

– اعتدنا أن نسعتين بالعرّاف في فكّ طلاسم الأزمان، ولكننا لم نفكّر يوماً ماذا سنفعل عندما يكون العرّاف هو ضحيّة الزمان !

قال ،أغوللّي،

– هذه خطيئة الملّة وليست خطيئة الأزمان. كان يجب أن نتعلّم أن الأزمان لم تعفِ أحداً من قصاصها يوماً. العرّاف أيضاً إبن الملّة وإبن لزمان .

مال ،أمّامّا، نحو العرّاف وتفحّص عينيه الغائبتين قبل أن يسأل :

– هل تذكرني ؟

لم يجب الكاهن فكرّر المعمرّ :

– هل نسيت قرينك القديم ؟

وَمَضَ في المقلتين ألق ضعيف، فسمع المجلس صوت :

– هيء هيء هيء ...

تبادل الأكابر نظرات الدهش والاستنكار، ولكنهم تشبّثوا بالصمت .

قال المعمّر :

– أنا أمّامّا. هل نسيتني؟ هل ينسى الخِلّ خِلّه بهذه السهولة ؟

– هيء هيء هيء ...

دفن الأكابر عيونهم في التراب، وأخفوا حزناً في رموز حفروها بأصابعهم على التراب .

أقبل الحكيم .

أمر الخدم أن يعدّوا النار قبل أن يلج الخباء. صافح الأكابر بيديه الخشنتين الممزقتين بشقوق فظيعة. صافحهم بكلتا يديه، ثم تقدّم وركع أمام العرّاف. تناول يديه في راحتيه، وترنّح قائلاً :

– ليتني لم أشهد يوماً يضطرّ فيه الحكيم أن يحرق رأس مولاه بالنار ليعيده إلى جنات العقل !

ارتفعت من صدور القوم دمدمة مكتومة. ولكن الأصابع ظلّت تدب على الأرض، ترسم صوراً وتخطّ رموزاً، وتبني بيوتاً، كأنها تفتّش عن سرّ القصاص، وتبحث في المجهول عن ترياق لداء المجهول .

(٢)

حرق الحكيم رأس الكاهن بالنار في ذلك اليوم، وأقبل عليه العطّار فسقاه قدراً من ماء الأعشاب، فنام أياماً متتالية. سهر فوق رأسه العبيد في الليالي، وزاره الأكابر في الضحى وفي العشيّ، ولكن المُصاب استغفل الجميع وفرّ إلى خلاء الجهة الغربية. أعاده الرعيان إلى النجوع بعد يومين، وقالوا إنهم وجدوه يمشي حافياً،

حاسر الرأس، ينزّ الدمّ من الجرح الفظيع الذي تركته حروق الحكيم في رأسه وصدغيه .

في نفس اليوم، مع حلول المساء، أقبل على بيت ،أمّامّا، رجل صارم، طويل القامة، نحيل البدن، ملفوف في السواد كلّه. جالسه المعمّر في العراء المجاور لخبائه، فكان العجوز ينحني إلى الأمام محاولاً أن يتبيّن ملامح الزائر في عتمة المساء. لم يقف الرجل عند المراسم، و لم يكثر التساؤلات المعتادة عن العافية والأوبئة وأخبار الجدب والغزوات ومكائد الأزمان. قال أن ما أصاب العرّاف بلاء أحزنه كثيراً، وحرق رأس المسكين كان عملاً همجياً لن يفيد أبداً، لأن علّة الكاهن لا شأن لها بعلل الممسوسين. ثم فاجأ العجوز بالقول أنه يعرف سرّاً يستطيع أن يشفي المصاب، وما على القوم إلاّ أن يأذنوا له بالاختلاء بالمريض عدّة أيام .

استمع العجوز باهتمام. عبث بحبيبات الحصى بالأصابع، ومال إلى الأمام حتى ظنّ الضيف أن العجوز سوف ينكفىء على وجهه، ثم اعتدل أخيراً وسأل:

– هل يستطيع الزائر المبجّل أن يفعل للعرّاف ما عجز عن فعله الحكيم والعطّار ؟

– لم يستعر حكيم الأسقام من الخفاء علماً، و لم يكن بمقدور أعشاب الخلاء أن تداوي داء الخفاء .

– هل يجزم الضيف أن علّة الكاهن من النوع الخفيّ ؟

– السرّ، يا مولاي، كنز، إنْ أعلنته فقدته !

– هل في الأمر سحر ؟

– لا يصير الدّاء مجهولاً إلاّ إذا وجد السحر إلى أبداننا طريقاً .

– هل أنت ساحر ؟

ابتسم الضيف في العتمة، و لم يجب، فسأل العجوز :

– هل أنت عابر ؟

سكت الضيف طويلاً. أجاب أخيراً :

– يعلم مولاي أننا لن نتباهى بالانتماء إلى الصحراء إذا لم نكن من أهل العبور .

أراد المعمّر أن يستفسر عن العشيرة، ولكنه أدرك أن الفضول جرّه بعيداً، فخالف مراسم اللياقة وبالغ في محاصرة الضيف بأسئلة يستنكر الناموس أن يلقيها مستضيف في وجه ضيف لم يمضِ على مقامه في البيت ثلاثة أيام.

زفر بيأس، ثم أمر الخدم أن ياتوا للزائر بوعاء الحليب.

(٣)

قيل أن الرجل الغامض أبعد الخدم من الخباء، ومنع الزائرين من دخول البيت، واختلى بالمريض أمداً استغرق عدة

أسابيع. قالوا في القبيلة أيضاً أن أنباء الكاهن كان يمكن أن تنقطع، وكان عمل الرجل الغريب يمكن أن يبقى سرّاً إلى الأبد، لو لم يلتجىء أهل الفضول إلى حيلهم القديمة لإشباع ظمأهم الأبدي لأخبار الأخيار، فأكثروا صبياناً أشقياء بحبّات التمر، وبعثوا بهم إلى الخباء ليتجسّسوا على أفعال رجل السواد .

هؤلاء الصبية قالوا أنهم تخفّوا في زاوية الخباء، ورأوا الرجل المهيب وهو يضع حبل المسد في قدمي العرّاف المسكين، ويشدّ الحبل إلى وتد مغروس في العراء المواجه لمدخل الخباء. ترك المريض في العراء حاسر الرأس، فكوته الشمس المميتة بشعاعات أشرس من نيران حكيم العلل، فنزف في اليوم الأوّل عرقاً، واستمرّ ينزف حتى غمر لباسه البلل، فسمعوه بآذانهم وهو يتوسّل ويطلب الماء !

في اليومين التاليين تركه تحت شموس الظهيرة مرّة أخرى، وفي اليوم الثالث سمعوه بآذانهم وهو يتوسّل ويطلب من الجلاّد أن يأتيه باللثام ! ولكن الأمر مع الطعام اختلف، لأنهم شاهدوا الجلاد الفظيع يلتهم الأطعمة، التي تبعث بها نساء القبيلة إلى الخباء، وحيداً، تاركاً ضحيته للجوع، وأقسم الأشقياء أن رجل السواد لم يطعمه لقمة واحدة طوال الأيام الكثيرة التالية، ولكن العرّاف لم يتنازل، ولم يطلب من جلاّده السماح له بمشاركته الطعام. كان يتربع بالجوار، يسدّد بصراً ساهماً إلى الفراغ، يعود

من وجومه من حين لحين ليرمق الجلاّد بنظرة غامضة تلتمع بابتسامة أكثر غموضاً، يعتني بحال اللثام، يمرّر أصابعه في ثناياه الكثيفة، ثم يترنّح إلى الجانبين، فتزداد البسمة في مقلتيه وضوحاً .

ولكن المسكين انهار بعد أمدٍ يقارب الثلاثة أسابيع، فقال الصغار أنهم سمعوه بآذانهم عندما طلب كسرة خبز !

بعدها أرسل الرجل في طلب الأكابر، وأخبرهم أنه أعاد لعرّاف القبيلة الذاكرة المفقودة، وما عليهم إلاّ أن يعتنوا بطعامه إذا أرادوا أن يعيدوا له الكيان القديم .

«أمّامًا» لم يصدّق. أقعى قبالة الجرم الهزيل، وانحنى إلى الأمام حتى لامس بعمامته عمامة العرّاف، وسأل :

– هل عرفتني؟ أقسم بـ ، تانيت، إن كنت عرفتني حقاً ؟

أسبل العراف عينيه كي يخفي في العين ابتسامة، قال بصوت خافت كأنه همس العشّاق :

– وهل أحتاج أن أقسم بأرباب الخفاء كي أعرف مولانا الجليل «أمّامًا» ؟!

ضرب «أمّامًا» كفّاً بكف، التفت إلى جمع العقلاء، أطلق صيحة بطولية لم تعتد القبيلة أن تسمعها من افواه المعمّرين. ضرب فخذيه الهزيلتين كحطبتين يابستين، وردّد بفرح طفولي :

– مرحى! مرحى! أقرعوا طبول البشارة، واتركوا الصبايا لتُسمع الصحراء الزغاريد، وانحروا .. إنحروا الأضاحي في الحال!

طوّق العراف بذراعيه، طوّقه طويلاً، وعندما تركه، ليفسح المجال لبقية الأكابر كي يعانقوا رفيقهم القديم، رأى الجميع في عيني المعمّر دموعاً .

(٤)

قال «أمّامّا»:

– افتقدناك كثيراً .

وافقه «أغولّلي» :

– طالت غيبتك. اعتدنا أن نألف الوحشة التي يتركها من تركنا وسافر بعيداً، ولكننا لم نعتد أن نألف وحشة يتركها من نراه بأعيننا، ولكنه لا يسمع صوتنا، ولا يستجيب لندائنا .

ردّد «أماسيس» :

– ما أقسى غيبة كهذه !

تكلّم العرّاف :

– لا أخفي أني افتقدكم أيضاً، ولولا رفقة الزعيم لكان الأسى بفقدانكم مضاعفاً.

ساد السكون، وتبادل العقلاء نظرات خفيّة. وكان «أمّامّا» أول من استفهم بلهجة لم تخلُ من استنكار :

– هل قلت الزعيم ؟

أجاب العرّاف ساهماً :

– نعم. سافرت إلى الحمادة الغربية تلبية لنداء الزعيم .

ساد الوجوم مرّة أخرى. أخفى القوم انفعالاً بإخفاء عيونهم أرضاً. سأل المعمّر :

– هل تحدثت عن السفر إلى الحمادة الغربية ؟

– نعم يا مولاي. أخذني الزعيم في رحلة إلى الحمادة الغربية لتفقّد أمطار السحب العابرة. هناك وجدنا ربيعاً لم تشهده عين، ولن يخطر لكم وصفه على بال. لا أدري لماذا تتشبثون بحياة الجدب في الحمادة الشرقيّة، وتتركون في الغربية ربيعاً لن يخطر لكم على بال .

سكت. حدّق في الفراغ السماوي، ثم انحرف أُفقاً، وانطلق عبر الامتداد الأبدي. عاد إلى لغة الهمس :

– أبديت دهشتي لهذا الأمر، فأخبرني مولانا أن هذا حال أهل الصحراء دائماً، استمرأوا القحط، لأنهم لم يجرّبوا غير القحط، رجعوا عن البساتين، لأنهم لم يألفوا الخروج غرباً، ولم يعرفوا ماذا تخبئه المسافة هناك. لا أخفي عليكم أني أنوي العودة إلى هناك ما أن أفرغ من سداد الديون وأنجز بعض شئون الدنيا .

كان المعمّر أول من أبدى دهشته :

– ماذا تقول؟ أعدت إلى ديارنا أم أراك مازلت تتنقّل في ربوع النسيان؟ ألا تدري أن رسل الاستطلاع تفقدوا الحمادة الغربية شبراً شبراً وعادوا منذ يومين فأفادوا أن الأرض هناك

احترقت من فرط الحرّ، والحجارة تكاد تنصهر وتتحوّل إلى رماد بسبب الحريق ؟

مضى يهيم في المدى البعيد المغمور باستار السراب، ثم قال بنفس الصوت الذيّ يشبه وشوشة العشاق :

– لا أدري أيضاً عن أي حمادة تحدّث فرسان الاستطلاع، ولكني لن أشك أبداً أن أقدامهم لم تطأ أرض الحمادة الغربية.

توقف الأكابر عن نبش التراب، ورموا العرّاف بنظرة إشفاق .

١٠

الغُرَابُ

« الحياة تلاحق الموت، وبالموت تبدأ الحياة »

تشوان تسي

« المعرفة تهاجر شمالاً »

(١)

«لن تُسمع في الصحراء بشارة السماء، إلاّ إذا شرب حجر الضريح من دم الغُراب» .

ساءل العقلاء عذراء الضريح عن سُبُل الخلاص ثلاث مرّات، فكانت الكاهنة تجيب في كل مرّة بنفس النبوءة: «لن تُسمع في الصحراء بشارة السماء، إلاّ إذا شرب حجر الضريح من دم الغراب» .

حار الأكابر في تفسير البنوءة، واجتمعوا في خباء المعمّر للجدل ليالٍ كثيرة، واستفهموا من العرّاف قبل أن يصيبه داء النسيان بزمن قصير، ولكن لا العرّاف استطاع أن يجد للإشارة تفسيراً، ولا عرّافة المعبد تمكّنت من فكّ رموز النبوءة، ولا حكماء الناموس توصلوا لاكتشاف يساعد في إيجاد مفتاح اللغز. فكان لسان العذراء يعيد العبارة بنفس العناد، بنفس اللفظ، كأن النبأ إيماء سماوي، كأن النبوءة استعيرت من لوحٍ مقدّس لا يجوز المساس فيه حتى بعدد الأحرف .

وما حيّر القبيلة ليس الشطر الأول من النبأ، ولكن النصف الثاني هو ما أثار الجدل، وعمّم الخلاف، وحيّر أعظم الناس حذقاً وأكثر أهل القبيلة حبّاً للحكمة، وإحترافاً لتفسير أقوال الخفاء .

والحقّ أن الشقّ الثاني لم يحيّرهم كلّه، ولكن الخلاف دار حول معنى كلمة «غراب»، فقال البعض أن المقصود هو الطائر الذي عرفوه، ونادوا بوجوب التضحية بغراب حقيقي، وسخرت الأغلبية من التفسير، وقالت أن الخفاء لم يكلمهم يوماً إلا رمزاً، كما لم يتعوّدوا من النبوآت إلاّ أن يسمعوا ما يستطيعون أن يجدوا لنيله سبيلاً، لا سماع المستحيل الذي يعجز عن نيله حتى الجنّ كاقتناص طائر كالغراب كان للقبيلة مضرب الأمثال لحذره، واستحالة اصطياده، وغموضه، وحكمته، وخلوده، حتى أن تعريفاً له ورد في الأحاجي يقول: «يوهاز أفوس، وريتحّة أفوس» * ذلك أنه لا يكف عن التنقل بين المضارب، ولا يغيب عن أنظار القبيلة ساعة، وبرغم هذا الحضور فإن الأجيال التي جربت اصطياده لمداواة السحر يئست من نيله ففتّشت عن ترياق السحر في كائنات أخرى كالحرباء، وتركت العجوز الخالد لأبناء الخلق الذين اكتشفوا السرّ بدورهم، فتجاهله صغارهم، ونسي العابرون وجوده. فأي قَدَر يمكن أن يطلبه اليوم قرباناً؟ وأيّ إثم جسيم ارتكبوا حتى يضع الخفاء الرهيب في رقابهم هذا الشرط المستحيل؟

أصرّ هذا الفريق على البحث عن الخبر اليقين في مكانٍ آخر،

---

* (قريب من اليد، ولكنه لا يقع في قبضة اليد) .

ودعوا القوم إلى مواصلة تقليب الأمر، لأن حكمة السماء تولد مخفيّة، ولكنهم تعلموا أيضاً إنها لا تصمد أمام عناد الطلب، فتتكشف في ضياء الإلهام بالفجاءة التي تتولّد فيها النار من سقط الزّند. وإذا شاءوا ألا يهلكهم الجدب، فما عليهم إلاّ أن يعتنقوا العناد، ويبحثوا في الدهليز، ويستعملوا العقل، ويسيروا في سبيل الجدل. ولكن انتظار الغيث طال، والصبر لم يأتِ بالعزاء .

(٢)

يقول الأولون أن الخفاء إذا أراد أن يطّهر الصحراء من دنس الخلق، أو يقتصّ من أهلها، سلّط عليها أحد النقيضين: الماء أو النار .

يغمرها بالأمطار ويغسلها بالسيول حتى تغرق الكائنات، أو يسلّط عليها شموساً تنفث ناراً لأعوام، فتحترق المراعي، ويتبدّد النبت، ولا يبقى في السهول غير ألسنة السراب وبخار الخيتعور .

والأوائل جربوا أيضاً أن السماء لا تبخل على الأرض بمائها بلا سبب، والشموس لا تحرق المراعي عبثاً، والبلاء لا ينزل الصحراء إلاّ لسرّ لا يبقى مجهولاً إلى الأبد، لأن الأزمان التي اعتادوا أن تخاطبهم بلغة العلامة مع كل بدء، لا بدّ ان تجري بالضدّ يوماً، فتنقلب على السرّ الذي اخفته، وتسوقه إلى برّ العلن، فتفضح في النهاية كل أمر

حرصت على إخفائه في البداية.

هذه المرة اجتهد العقلاء بحثاً عن سرّ البلاء أيضاً، وتكاشفوا كثيراً، فوجد البعض العلّة في استسلامهم للتراب، وخضوعهم لاستقرار كان لهم دائماً عدواً، فخالفوا ناموس العبور، بعد أن صار لهم ضريح الزعيم وتداً يشدّهم إلى الأرض. ورأى آخرون في الجدب إشارة أبعد، وقالوا أن في الأمر إيماء، والإيماء كالجنين يولد بلا ملامح، ولكن الأيام ستدبّر له وجهاً، وستختم الوجه بملامح، وقد جرّبوا مراراً أن الأسرار، أعظم الأسرار شأناً، لم تُوجد إلاّ لتُعرف.

وما عليهم إلاّ أن يحتكموا إلى الصبر، وينتظروا عملاً بوصايا الناموس.

شكّك الغوغاء في دعوة أهل الإيماء، وسخروا من ناموسهم الذي يروّج لتسليم يهدّد حياة القبيلة، ولا يجلب لأهلها إلاّ الهلاك والفناء. ومضى هؤلاء يسفّهون ويشكّكون حتى بعد أن أُصيب العرّاف بداء النسيان، وتنقلت بين المضارب أقوال تفيد أن الشرّ قد داهم النجع منذ زمن بعيد، لأن أبناء القبيلة خالفوا الوصايا، وقايضوا التّبر من تجار القوافل بالبعائر والسروج وأوعية السمن، وأخذوا هباء النحس إلى الحدادين، فضربوا لهم المعدن القبيح في حلي لئيمة، ليقدّمها هؤلاء الأشقياء لمعشوقاتهم عربون عشق ووفاء. قيل أيضاً أن العرّاف اقتنى

معدن النحس أيضاً، وضربه حلياً قدّمها لعذراء الضريح التي يعرف الكثيرون أنه وقع في عشقها منذ زمن طويل، منذ زمن سبق إختفاء عاشق الحجارة، وفي رواية أخرى، قيل أنه لم يبح لها بسرّه إلاّ بعد هجرة حكيم الحجر بأمد طويل، فصدّته بصرامة، وقالت له أن العذراء التي صار لها الزعيم قريناً، ونالت في النبوءة خلاً، لن تتنازل لعشق أهل الظلّ أبداً. ولكن الكاهن لم يستسلم، فقرّر أن يلجأ للذهب بفضل معرفته القديمة بقدرة هذا المعدن الكريه على أسر قلوب العذارى، وإدراكه بأن , وانتهيط, لم يدخله الصحراء أصلاً إلاّ بعد أن جرّب قدرته المخيفة على مسخ العقول، وبلبلة الأفئدة، وتزييف النوايا .

العشق أعمى العرّاف وأنساه نواهي الناموس، فاقتنى الهباء الحرام من أحد التجار العابرين (وفي رواية أخرى: اقتناه من أحد أبناء القبيلة الذين بدأوا يتعاطونه سرّاً)، وسكّه من أحد الحدّادين حليّا لئيمة، وذهب بالعطية إلى المعشوقة في المعبد. وما يدهش حقّاً أن الرواة لم يختلفوا في قبول الكاهنة للعطية، بل أجمعوا أن العذراء أخذت الحلي وتأملتها طويلاً قبل أن تدسها بين حجارة الضريح. أمّا الفضوليون فقد أقسموا أنهم رأوها بعيونهم وهي تتفحص الحلي بعينين نهمتين، جنيّتين، ثم تشيع العطية أمام وجهها في الضوء حيناً، ثم تعود فتدلّي العقلادة على صدرها وجيدها حيناً آخر، وعلى شفتيها ترتسم ابتسامة إغواء لا تليق بحسناء اختارت الخفاء قريناً .

استنكر العقلاء الأقاويل، وسبّ كثيرون العشق فقالوا أن اللعنة ليست في معدن الحرام، ولكنها في العشق الذي لم يرأف حتى بأهل الغيب. وتعجّب السواد الأعظم قائلاً أن الجدب بلاءٌ هيّن لقبيلة يقتني عرّافها تبراً ليقدّمه إلى عذراء نذرت نفسها لسلطان الخفاء .

(٣)

خارج خباء العرّاف طاف رجل صارم، نحيل القوام، يتلثّم بالسواد، ويلتحف أيضاً بالسواد. انتظر حلول الظلمات، التفت حوله بارتياب من يخشى أن يضبط متلبّساً، ثم دلف الخباء .

في الداخل وجد الكاهن يتكيء على الركيزة، يجاور ناراً خابئة، ويحدّق في الركن المعتم غائباً. تربّع بجوار الموقد، ألقى إلى النار بقبضة من العيدان. قال :

– أرى مولاي ما يزال يطوف بلاد النسيان .

العرّاف لم يعد من غيبته حقاً، ظلّ جامداً محدّقاً في فراغ الزاوية الظلماء كأنه لم ينتبه لوجود الزائر. ولكنه ما لبث أن عاد باللسان :

– هيهات أن يعتاد بلدان الباطل، أو يستطعم المقام بين الناس، من ارتاد وطن النسيان مرّة .

– لم أعرف مخلوقاً واحداً يطرى النسيان بهذا الحماس مثلك .

– وكيف يثنى على النسيان إنسان لم يجرّب النسيان، و لم يعرف مزايا النسيان ؟

– ولِمَ علينا أن نجرّبه إذا كنّا نعلم أننا سنجرّبه يوماً مرّة واحدة هي الأولى وهي الأخيرة؟

– لو ذقتم حلاوة النسيان لتمنيّتم أن تعيشوه اليوم قبل الغد .

– فليجرنا الخفاء من هذا المصير ! في أعناقنا أولاد يجب أن نرعاهم حتى يكبروا، وفي أيدينا أرزاق يجب أن نربيها وننميها، وفي الصحراء حسان وصبايا أبكار علينا أن نداعب صدورهن ونعانقهن في ليالي الشتاء، فلمن تريدنا أن نترك كل هذا إذا سرنا في طريق النسيان قبل حلول الميعاد ؟

– إذا أردت أن تنجو من الأغلال التي تحدّثت عنها فلا يجب أن يعنيك أمرها لأن حشود الحمقى ستتولّى عنك الأمر في الحال .

– أخشى عندها أن أكون أنا من يستحق لقب الأحمق .

– وأنا إلى الحماقة أسبق لأني أريد أن أخرج من اعتياد الإقامة في ظلمات الكهف، وأقنعه بأن الضياء أبهى من الظلمة .

– صدقت. دعني في ظلماتي، وادفع لي دَيْني، ثم أذهب إلى الحمادة الغربية وعشْ نسيانك هناك ما شئت !

خرج العرّاف من جموده، التفت إلى ضيفه سائلاً :

– أنت ؟

أجاب الزائر بهدوء :

– وهل ظنّ مولاي أنه ما زال يدب في خلائه البعيد، ويحادث أشباح الأضرحة في الحمادة الغربية ؟

اعتدل العرّاف في جلسته. حاول أن يتبيّن ملامح الغريب في نور ألسنة نار بدأت تتمادى وتتلظى. قال :

– ظننتك إنساناً جاء إلى هذا الخباء مرّة ليعيدني من بلاد النسيان ظناً منه أنه يفعل خيراً .

– الحقّ يا مولاي أني لم أفعل خيراً في ذلك اليوم حبّاً بالخير، لأنك تعرف أن لا أحد يفعل خيراً هذه الأيام حبّاً بالخير. ولكني ما فعلت في ذلك اليوم خوفاً على ديوني من الضياع .

– ماذا ؟

هتف الكاهن بالسؤال القاطع مرتين، فأجابه الجليس بضحكة مكتومة. هأهأ طويلاً قبل أن يقول:

– هل نسيت الدّين؟ أم الأمر كله لم يكن إلاّ حيلة للتهرب، والفرار المزعوم إلى الحمادة الغربية لم يكن إلاّ فراراً من ردّ الدّين ؟

صاح العرّاف بصوت ينذر بوعيد:

– كيف تجرؤ على الاستهانة؟ كيف تجرؤ على الإتهام ؟

– هيء هيء هيء .. كنت أسائل نفسي وأنا في الطريق

إلى بيت مولاي عن سرّ تهرّب الناس من ردّ الديون، وقررت أن أسأل مولاي لماذا تجد العداوة طريقاً بين الدائن والمديون برغم أن العقل يقول أن الدّين يجب أن يبني بينهما قناطر ودّ لا ينقطع، فهلا أجابني مولاي عن الحكمة ؟

انكفأ إلى الأمام حتى كاد طرف لثامه أن يسقط في اللهب، وأطلق في وجه العرّاف ضحكة كريهة كفحيح الحيّة، ثم تراجع إلى الوراء وتابع الكاهن بنظرة خبيثة. قال العرّاف :

– يعلم الخفاء أني عملت لدفع دينك عليّ صادقاً، ولولا تدخل السماء، وحلول الجدب، الذي أهلك قطعاني، لسددت الدّيْن منذ زمن بعيد، ولا تظن أن الإنسان يستطيع أن يتنصّل من أوزار أهل الخلاء بمجرّد أنه بلغ برّ النسيان، بل التحرر من هموم الخلاء أول شروط نيل النسيان . وإذا كنت قد قطعت السفر، وارتضيت العودة من منتصف الطريق، فإني لم أفعل ذلك إلاّ لرغبتي في تسديد الدّيْن، ولولا هذه الرغبة لما استطاع أي ترياق أن يعيدني إلى هذه الأرض .

– هيء هيء ..ولكن ترياقي أعادك إلى ديارنا يا مولاي. اعترف ، يا مولاي، أن ترياقي أشدّ تأثيراً من قوى الخفاء . هل تعلم لماذا يا مولاي؟ لأنه ترياق جاءني من تلك الديار ، لأنه ترياق مستعار من بلاد الخفاء. هيء هيء هيء ..

سكت العرّاف. سكت طويلاً. قال أخيراً :

– في الأيام الخالية كان أكابر القبيلة يثنون على من أعادني إليهم، وكنت أفكّر عكساً. كنت أقول لنفسي أني لن أغفر لذلك الشبح الذي أخرجني من جنات الحمادة الغربية ليعيدني إلى همّ الدنيا وأصفاد الحياة في ربوع القبيلة. والآن عندما علمت أن ذلك الشبح لم يكن شبحاً من أشباح الخفاء، ولكنه إنسان بائس لا يريد إلا استرداد حفنة من هباء التبر، فأني رأيت أن أقتصّ منه كما اقتصّ منّي، فلا أجد للقصاص من سبيل إلاّ أن امتنع عن ردّ الدين. هذا هو الجزاء !

– ماذا يريد مولاي أن يقول ؟

– لن تنال الدين جزاء عملك الذميم .

– هل يريد مولاي أن يقلب الودّ عداوة عملاً بشرع الدائن والمديون ؟

– منع الدين قصاص هيّن إذا قيس بفعلك الكريه !

– لماذا كُتب على الإحسان في هذا الخلاء أن يُجازى نكراناً ؟

– إخرج وإلاّ أمرت بجلدك !

– تمنع عنّي ديني ثم تأمر بجلدي أيضاً ؟

– إذهب حالاً إذا أردت ألا تقع في أيدي عبيد لهم سواعد أقوى من سلاسل الحديد .

هبّ الضيف واقفاً. في الخارج غمغم بوعيد كأنه يكلّم نفسه

بنبوءة .

– علمتنا الصحراء أن نذهب ونحيا في أرضٍ أخرى غير الصحراء إذا حدث وكسبنا عدواً، فاحترس أن تسكن الصحراء بعد اليوم يا غراب النحس!

(٤)

قُدّر للقبيلة أن تسمع النبوءة مرّة أخرى يوم مصرع العرّاف .

ذلك أن جدل الأكابر حول القربان انتهى أخيراً إلى الإتفاق على نحر جدي أسود اللون، لأن تفسير الكثيرين أكّد أن المقصود بالغراب ليس الطائر في جرمه، ولكن السرّ يكمن في لونه، وصفات الغربان ليست في مسلكها، ولا في مشيتها، ولا في مزاياها الخفيّة الأخرى، ولكن السواد هو علامتها الأولى، فاختاروا جدياً أسود اللون، وأتوا به إلى العرّاف لينحره عند حجارة الضريح .

تحلّق الأكابر فوق المرتفع، وحام الصغار وأهل الفضول في العراء المحاور للمضارب، وأقبل أحد الأتباع بالجدي مقيداً ووضعه عند قدمي الكاهن. انهمك العرّاف في تلاوة التمائم القديمة، ورفع إلى السماء العارية نظرة غائبة، ثم أخرج من كُمّه مديته النحاسية. جرّدها من الغمد، وانحنى على الأضحية. ثغا

الجدي بأعلى صوت، فأومأ العرّاف لرجل الأتباع أن يأتي لمساعدته. داس الرجل على رقبة الجدي بركبته، وتشبّث بالنحر بكلتا يديه، فجرّ الكاهن المدية الشرهة على الوريد، ففزّ الدم من النحر بغزارة، وطار فلوّث حجارة الجدار. انتزع العرّاف مديته، مسح عنها الدم بشعر الجدي الذبيح، ثم غرس النصل في التراب بجوار رأس القربان .

ساعتها أقبل على المعبد الشبح. كان مهيباً بمشيته الصارمة، وقامته المديدة، وثيابه السوداء. عبر بجوار الأكابر، ومضى حتى اقترب من موقع الكاهن. قال بنفس الغمغمة العجيبة التي استطاع العرّاف أن يتبيّن الفاظها بصعوبة في تلك الليلة :

– قلت لك يا غراب النحس أن تذهب وتحيا في مكانٍ آخر غير الصحراء إذا حدث وكسبت فيها عدواً .

تناول المدية الفظيعة المغروسة في التراب، وطعن بها العرّاف في نحره. رأى الجمع النصل المميت يلتمع في ضوء الشمس الغاربة قبل أن يغيب في نحر الكاهن حتى المقبض. أطلق المسكين حشرجة غريبة، وأمسك المقبض بلكلتا يديه، وانحنى إلى الأمام قليلاً فحدقت مقلتاه حتى ظنّ المتفرجون أنهما ستسقطان من محجريهما، ثم ترنّح وهو يعاند ويحاول أن ينتزع النصل الشرس من النحر. فزّ دم أكثر غزارة من دم الأضحية،

فلوّث اللثام، وسال على اللباس كلّه، وعندما تنقّل المغدور في محاولات الخلاص، لوّث بالدم حجارة الجدار أيضاً، فأكّد الجميع أنهم سمعوا جعجعة رعد بعيد في تلك الغمضة رغم خلو السماء من السحب، والتفتوا فرأوا بروقاً تمزق الأفق ناحية الشمال، ففهموا كل شيء .

هتف صوت :

– هل سمعتم ما قال؟ لقد نعت مولانا بـ «غراب النحس» . كيف نسينا أن كل القبائل تسمّي العرّافين غرباناً ؟

ساعتها فاق الجمع من الذهول، فقفز البعض إلى العرّاف، وقفز آخرون بحثاً عن الشبح الذي اختفى .

انتزع «آهلّوم» المدية من النحر فاشتدت غزارة النزيف. انتفض الجسد الهزيل في رعش محموم، ثم همد إلى الأبد. احتضنه «أمّامّا» طويلاً. همهم كالمخبول .

– ها أنت تسبقنا إلى شطّ نسيان أردت دائماً أن تسبقنا إليه، وها أنت، يا مولانا، تنال غرابك قرباناً !

قعقع الرعد بعنف، واحترق الأفق بالبروق، فالتفت الناس ليروا أن جحافل غيم قاتم قد بدأت تغزو الصحراء من جهة الشمال.

١١

سرُّ المدية

«خُلقت السمكة للماء، وخُلق الإنسان للسبيل»

كونفشيوس

«التعاليم»

(١)

يشتدّ الظمأ إلى الوريد، تشتعل اللهفة إلى الدمّ، يرتجف اللسان شوقاً للغوص في اللحم، يومىء الحدّ توقاً لملاقاة الجسد المعشوق، يتململ النصل في جوف الغمد حزناً على الفقد، احتجاجاً على قمع، كفراً بقصاص الظلمات. ولكن الجرم المشدود بضلفتي الغمد يتذكر التميمة، يستبد الرموز المحفورة على جانبي النصل بلسان النار، فيحتكم إلى بناء الأوّلين الذين لم يدرك سرّ المدية أحد سواهم. تستعطف الرمز برواية سيرة البدء، فتتمتم بقدرتها العجيبة على عبور الأجساد والعوم في الدم، ونهش أشدّ اللحوم خشونة، والإنسياب بين شباك العروق، والتسلل في طرق لئيمة لتجنّب كتل العظام. يشوشت بسرّ يقول أن اكتشاف المفاصل هو أعظم حيلة في المسيرة كلّها، وقد أطلقت على الإكتشاف إسم «سرّ الحرفة» وانتهت إلى أن إنسان الملّة العابرة لن يطيل حياته أضعافاً فحسب لو اكتشف هذا السرّ، ولكنه سيحقق حلمه القديم في نيل السعادة، إن السير في سبيل المفاصل تعويذة تقي من الشرور، وتجنّب العار الوقوع في الأسر. أفتح في الجرم الأخرس باباً، أشقّ في غمر الدم طريقاً، أتسلل بين الأحراش، وأغيب في الدغل، أتحسس الأمكنة وأختار الدرب اللميس دائماً، أتحاشى الوعورة، وأحرص على الفرار من برّ

الصلد. يميل السبيل شمالاً، أسير شمالاً، ينحرف السبيل السمح غرباً، انحنى غرباً، ينعطف المسلك إلى أعلى، أنساب إلى الأعلى، ينتهي المطاف إلى الصلد العنيد، أتوقف، أتحسّس، أميل شمالاً، أفتش غرباً، اتراجع إلى الوّراء خطوة، أعود إلى الأمام خطوتين، أبحث في الجدار الصارم عن سرّه، عن فجّة الخفيّ، ولا أتعب من البحث، لا أتوقف عن التفتيش حتى اكتشف الكنز، حتى اكتشف الشقّ. لا أعاند الصلد أبداً، ولا أحاول أن أنال سبيلي منه غصباً. ولكن اللّين، والطلب، والصبر، يفتحان لي في جرمه شقاً. أتسلل من الشق الهزيل كما تتسلل الحيّة بين الحفر السفلى، وانطلق في السبيل الجديد بلا عراك، بلا خصومة، بلا بلبال .

بهذه الحيلة الصغيرة نلت هدوء البال، وفزتُ بثقة مولاي.

(٢)

وُلدت مملوكة ككل كائن في الصحراء، سرّ وجودي يكمن في نصلي، في لساني، وسرّ وجود مولاي تخفّي في المقبض. هلاكي في المقبض، وهلاك مولاي في حدّ اللسان. فإن استولى على المقبض، نال الحياة، وإن تخلّى عن المقبض استولى الأغيار على المقبض، فيصير النصل له نصيباً، وفي النصل الهلاك. لأن الهلاك دخل الصحراء مدسوساً في لساني، لذلك اختلق

الأوائل الغمد المنيع لإخفاء النوايا، وحبس الشهوة، وقمع اللهفة الخالدة لنحر الأخ .

في المسافة الصغيرة القائمة بين المقبض وبداية النصل تمدّد ناموس الحياة وناموس الممات. جاء مَنْ غلبه الإغواء وسلّم أمره للشهوة فاستولى على المقبض. سجدت له الصحراء لأنه امتلك المقبض فصار على الصحراء سلطاناً. وكان النصل من نصيب من تأخر، فصاروا في مملكة السلطان عبيداً وأسرى ومماليك .

ولا أحد في الصحراء يعرف كيف استطاع السلطان أن يهتدي إلى سرّ المقبض، وسرّ اللسان. وأغلب الظنّ أن قبائل الجنّ هي التي وشوشت له بالأمر، لأن الصحراويين أدركوا أن هذه القبيلة الخفيّة تصير حليفاً لصاحب المُلْك ما أن يمسك بالمقبض الرهيب، فتخبره بالليل ما يجب عليه أن يفعله بالنهار، وتحدّثه بنوايا أهل السوء، قبل أن يتحدّث أهل السوء بنواياهم لأنفسهم، فقيل أن للجنّ يرجع فضل حرص السلطان على امتلاك المقبض، فكان لا ينام إلاّ إذا شدّد قبضته على المقبض. وفي زمن آخر شدّ الأصابع حول المقبض بحبل من مسد. وفي زمن آخر أحكم ربط الأصابع حول المقبض بسيور الجلد الطازج، وعندما تيبّست السيور على عود المقبض، صارت القبضة والمقبض يداً واحدة، فيقال أنه تفوّق في الدهاء على حكماء الجنّ أنفسهم، فخشيهُ مردتهم، وخافه دهاتهم، فكان أن

سخرّهم، وقاموا على خدمته، فسلطتهم على الخصوم من أهل الخلاء، فطاب له الملك على الصحراء لأن الطامعين يئسوا من انتزاع مقبض صار مع اليد جسماً واحداً .

(٣)

الجنّ أوّل من اكتشف فظاعة المعدن، فتجنّبوا الأنصال، وفرّوا من اللسان إلى أبعد الممالك. قيل في رواية أنهم جربوا، وقيل في رواية أخرى أنهم ليسوا بالغباء الذي يراه لهم الخلق حتى يجرّبوا الأمر على أنفسهم، ولكنهم رأوا سلطانه على رقاب أهل الخلاء عندما امتلكهم سلطان الخلاء باليد المشدودة إلى المقبض، فقرأوا النبوءة .

ولا أحد يعلم كيف افتضح أمرهم، وأعلم الناس بخوفهم من الأنصال، لأن أهل الصحراء مالبثوا أن استخدموا الأنصال للإنتقام من أهل الخفاء. جرّدوا الألسن من كلّ غمد، ورشقوا الأنصال المميتة عند رؤوس الأطفال الذين اعتاد الجنّ أن يختطفوهم في قماط المهد ليستبدلوهم بأبناء من ملّتهم، فارهبوا الأشقياء، وطردوهم إلى أبعد أركان العراء .

منذ ذلك اليوم اصبح جرم المدية تعويذة .

ولكن البلهاء غفلوا عن المقبض عندما تركوه منصوباً في الفراغ، فاستولى عليه الأعداء ليسدّدوه إلى صدور الأبناء يوماً.

(٤)

اليوم أيضاً تستنجد المدية بالتميمة المرسومة على اللسان، فتجد لها التميمة القديمة من القمقم مخرجاً. تغرق في فراغ السماء، تحمّم لسانها الشره في فيض الضوء، تلتقط في ميعاد الغسق نبوءة ستحقر لها وجوداً بحدّ النصل بعد حين .

خرجت المدية من سجنها، وحشرج النصل في النحر وهو يلعق دماء الجدي الأسود. حشرج بسخرية لم تُدرك، لأنها لم تُفهم.

غاب المقبض في كفّ المولى، وغاص النصل في لحوم النحر. سلك سبيله القديم، حزّ الشبكة، وفتك بحبال الأوردة، واخترق شرايين جرى فيها سلسبيل الحياة. انتهش العقبة ،وقطّع الأسلاك، واجتاز إلى الجدول لينهل من الغمر السخيّ. ولكن هيهات أن يرتوي لسان النبوءة من ينبوع الأكذوبة .

(٥)

فزّ اللسان من الجوف، وفرّ النصل من جسم القربان . ثم هوى بالجوار وأخفى الرأس الظامىء في التراب. تخلى المولى عن المقبض فتحرّر المارد المغلول بأصفاد الدهور. طاف السماوات في غمضة واحدة، وعندما عاد إلى رحاب الخلاء بالنبوءة كان رسول الخفاء قد اعتلى المرتفع، وأقبل على المعبد غامضاً، نحيلاً،

صارماً. انحنى واستولى على المقبض في الحال. استغل خطيئة المولى فسبقه إلى العرش المميت، فكان على المولى أن يتلقّى الجزاء في الحال، لأن صاحب السلطان نسي أن المقبض يرتدّ نصلاً إذا تخلى عنه صاحب الأمر ساعة.

استقرّ النصل في نحر صاحب النصل في مساء ذلك اليوم، لأن الخفاء شاء أن يستبدل الأكذوبة بالنبوءة، وأراد أن يقول للعرّاف أن على من امتلك مقبض المدية أن يحترس كثيراً، لأن صاحب المُلْك يخطيء مرة وحيدة هي المرّة الأولى والأخيرة دائماً.

١٢

السيول

« الماء لين ونقيّ، يستطيع أن يزيل الوسخ عن جسد الإنسان. هنا تكمن إنسانية الماء! لون الماء قاتم، ولكنه، في الحقيقة، شفّاف. هنا يكمن كمال الماء! إذا قسنا مستوى الماء لا نستطيع أن نستعمل « غاي» لمساواته، فإذا امتلأ الوعاء ماءً، لا نستطيع أن نضيف إلى الوعاء المملوء شيئاً. هنا تكمن عدالة الماء! الماء يتدفّق باتصال، ولا يتوقّف إلاّ في المكان الذي يتحقّق فيه الاستواء. هنا تكمن نزاهة الماء! كل الكائنات تسعى للارتفاع إلى أعلى، الماء وحده يسعى إلى أسفل. هنا يكمن تواضع الماء! »

هوان تسي

« الماء والأرض »

(نصّ صيني قديم)

(١)

يتنفّس الشمال برياح تفوح بشذى الندى، يكتئب الأفق الذي يطوّق جبال الشمال بحزام نبيل له لون الفجر دائماً، يتكاثف الغيم في البُعد بحماس الغزاة، تمزّق البروق عتمته الجليلة بوميض لجوج، يتلوّى في ألسنة لها سرعة السياط النارية، لينطفىء بعجالة تذكّربغموض النبوءة .

لا يدوم الانتظار طويلاً.

يهجم الغيم الأسود فوق الخلاء الظامىء كجحفل الأعادي. يقبل زحفاً كأنه يريد أن يلامس العراء العاري، ويرمي، في البدء، بقطرات كبيرة في حجم الزّبد الذي تلفظه الجمال القريعة في موسم قرْع النوق. ثم ينهمر الغيث. ينهمر بسخاء، فيثير السقوط في الفراغ غباراً، وتُباغت الأرض العطشى فتبقبق بنهم من يريد أن يستزيد، فيغلبه الجشع، ويختنق بالنصيب، فيلفظ ما ابتلع. ترتوي المساحات المفروشة بألواح الحجارة أولاً، ثم تحاكيها المفازات المكسوّة بسجّاد الحصباء، فيفيض الغمر على السطوح، ويتسلّل عبر المسالك إلى الشعاب خلسةً، والشعاب تأخذه إلى الوديان المغطاة بطبقات الوعوثة فتتلقفه القيعان الرملية بلهفة العشاق، في حين ترتوي الأسافل الطينية في زمن أقل، فترتفع المياه مرّة أخرى، وتتجمّع في البقاع المستوية، ولكن

الاستقرار لا يدوم طويلاً. تدفع الشعاب بسلسبيل جديد، وتستقبل الأرض من السماء مزيداً جديداً، وتأتي أعالي الوديان بنصيب أكبر، فيتململ المارد في قمقم الرقعة، ويندفع في مسيرة تبدأ سلسلة إنسابية، عاقلةً، ولكنها تزداد جنوناً كلما مضت إلى الأمام. يتغذّى الجنون من الشعاب الكثيرة التي تمزق شطآن الأودية، ويستعير المدّ من السماء غذاءً آخر، فتتلاحم العطايا، ويزداد الجنون، ويتخلى الماء عن إسم الماء ليصير ماردا يستعير إسم السيل!

(٢)

يستبق السيل زحف السحاب البطيء، فيدرك الصحاري السفلية الأبعد، ليباغت الكائنات التي تسرح في خلاء تعلوه سماء عارية مغسولة بشعاعات شمس قاسية .

يزداد المارد جنوناً، ويمدّ يداً خفيّة ليبدأ انتزاع القرابين. يختطف أعشاش الطير من أصول شجيرات الرتم، فتطفو حبّات البيض الصغيرة الموسومة بأصباغ داكنة غامضة، وتتبدّى الفراخ الوليدة المكسوّة بالزغب الأصفر في طرف اللسان الشره وهي تتشكّى وتطلق نداء الوداع، في حين ترفرف الأمهات فوق التيار الجنوني في فزع قبيلة أخذها الغزاة على حين غرّة .

في المسافات التالية، في المساحات التي تلين فيها أرض القيعان، وتكثر الجحور، تمتدّ يد المارد لتستخرج ضحايا من

أعمق الحفر: فئران يفرّون في وجوه الحيّات، حيّات تفرّ من بطش القنافذ، قنافذ تفرّ من هول الإنسان. يضع المارد قرابينه في جرابه، ويداهم شقوقاً أخرى لينال من ملل أخرى أضاحٍ أخرى: الأرانب، الخنافس، العظايات، الضباب، صغار الغزلان، ولا يفوز بالقرابين الأكبر شأناً إلاّ عندما يبلغ الوديان السفلية الشاسعة حيث ترتع قطعان الأغنام والإبل، ويتسامر الرعاة حول مواقد النيران ؛ يتسلّون بتبادل الأحاجي، يتبارون بالأشعار، يرفعون الأصوات بأغاني الشجن، ثم يعودون من ممالك الحنين ليتحدّثوا من جديد عن بلاء الجدب، وتذبذب مسلك الزمان. يباغت المارد المراعي السفلية لينتزع القرابين الأعظم .

يباغت الرعاة ليلاً، فيداهم الأغنام والمعز والجداء، ليأخذ من القطعان نصيباً مهولاً. ثم يهجم على اصحاب القطعان ليحاصرهم في جزائر صغيرة تقوم في قلوب الوديان السفلية الكبيرة. يحكم حول ضحاياه حصاراً في البدء انتظاراً للدعم الذي سيأتي في فيض الشعاب والمسارب والأودية الجانبية الأخرى. يشتد الغيث في الشمال، وتضيق الأرض بالمياه، فتدفع بنصيب سخيّ إلى الوديان السفليّة. يتدافع الغمر، ويعلو مستوى المياه في القيعان، فتندفع الأمواج الهائلة إلى المسافات الأبعد. يجتاح التيار الجزائر الهزيلة، ويجرف المارد ضحاياه المحاصرة، ليرمي بها في اليمّ الرهيب. يقاوم الرعيان ببسالة. يتشبثون

بأشجار الرتم، ويستعينون بحبال المسد، يحاربون المدّ بأعمدة الشجر، ولكن المارد يستميت أيضاً. يستميت، ولا يستسلم إلاّ بعد أن ينتزع من سلالة البشر قرباناً .

يجرّ السيل ضحاياه إلى الأحاضيض الواطئة في صحراء الجنوب. هناك تعترضه السيوف الرملية، فيتباطأ، ويهدأ، ويغوص بلسانه إلى أسفل، ليدفن في الهاوية قرابينه التي جلبها من صحاري الشمال .

(٣)

في الأعالي، على سطح الحمادة المكشوف، تهجر القبيلة الأخيبة المهدّدة بالغرق، وتفرّ إلى الروابي والمرتفعات وسفوح الجبال. هناك تتكاكأ جموع الصغار والنساء والشيوخ. تتدثرّ بما استطاعت حمله من الأغطية، ويُخرج الدهاة من أحضانهم كنوزاً من عيدان الحطب. يأتون بها ملفوفة في قماط من أسمال الكتّان خوفاً عليها من البلل. يفترشونها ليحموها بأجسادهم من المطر، وعندما يرتفع بكاء الصغار، وتبدأ الشكوى من البرد والجوع، يلتمّ الدهاة في دوائر، يحجبون رؤوسهم وأجسامهم بالأغطية، ويشرعون في معاندة الزنود لاستجداء النيران. يعاندون طويلاً قبل أن ينبثق السَّقَطْ، ويعاندون أمداً أطول قبل أن يستطعم السَّقَط خِرَق الكتّان وتفوح من بقايا القماش روائح الدخان، ويعاندون آماداً أخرى قبل أن يفلحوا في

توليد الجذوة وبعث لسان النّار. ثم يبدأون في نفخ الألسنة الوليدة ليجعلوا النار تروم العيدان التي لم تفلح كل التدابير في حمايتها من الرطوبة .

أمّا رعيان الوديان السفلية الذين يهرعون لإخراج القطعان من أعماق القيعان أثناء الهجوم الأول، فيعتصمون بأعالي الشطآن، يتحسرون على الرؤوس الضائعة، أو يتعاونون في إنقاذ المنكوبين الذين حاصرتهم السيول في جزائر الأودية، فيلقون لهم بالحبال، أو يرمون إليهم باعمدة الأشجار، علّها تعينهم على محاربة التيار إذا تمادى السيل، وهدّدهم ارتفاع مستوى المياه. وعندما يحلّ المساء، ويجد الرعاة أن المارد المميت قد شتّت شملهم، وفرّقهم فوق المرتفعات والروابي والشطوط، يتنادون بأصوات عالية، يسائل بعضهم بعضاً في الساعات الأولى من الليل عن الخسائر، ثم يسكتون طويلاً، فيرتفع صوت الهدير، ويتكلّم الماء نيابة عنهم أمداً طويلاً. ولكن كلام السيل يخيفهم، ويوقظ غول الوحشة في نفوسهم، فيرفعون أصواتهم بالغناء. يغنون طوال الليل .

في قيعان الوديان يغني السيل .

على شطآن الوديان يغني الرعيان .

(٤)

يستمرّ زحف الغيم يوماً، أو يومين، أو ثلاثاً، قبل أن يرسم

المجهول الشارة في الأفق، ويستقر قوس قزح علامةً على جلاء الغيم.

في السماء يتبدّى قرص الشمس عارياً من أشعته النارية، يمرق عبر لفافات الغمام والأبخرة حاسراً متشبّهاً بأقمار الصحراء عندما تستوي بدراً، وحتى عندما تفوت الغلالات، وتتبدّد الأبخرة، ترمق آلهة السماء كائنات الخلاء بعين منطفئة، متسامحة، كأنها قررت أن تتخلّى نهائياً عن طغيانها القديم. ولكن النداوة تتبخرّ ما أن ينقشع السحاب، فتجف الخلوات المغطاة بالألواح الحجرية، ثم تليها المساحات المفروشة بالحصباء والقطع الحجرية الأصغر حجماً، ثم تتبدّد الرطوبات من جسد الأراضي الطينية، فالرملية، فلا يبقى في الصحراء العليا أثر المطر إلاّ في الوديان السفلى التي يهوى فيها مستوى الغمر، ولكن السيل يستمر يبرطم ويرطن ويثرثر في قيعانها .

يعود شتات القبيلة من هجرته في الأعالي، ويدبون في الخلوات، يوقفون الركائز، ويقيمون أعمدة الأخبية، ويتفقدون المفقودات والخسارات التي اعتادوا أن يتكيدوها كلما أقبل الخير، ومَنّ عليهم المجهول بالأمطار .

يستغرقهم تفقّد الحوائج والمتاع والمقتنيات فينسون أنفسهم، ويغفلون عن ميلاد الطير في سماوات ما تزال تتحجّب بالأبخرة. يخرج الصغار ليلعبوا بالأوحال في السهول المجاورة، فيكونون أول من يكتشف طلوع لُعاعات النبات بين شقوق الحجارة، فيركضون لينقلوا البشارة إلى البيوت .

١٣

القُربان

«كما يتكاكأ الصغار حول الأمّ، كذلك تتعطّش الأشياء في هذا العالم لنيل القربان المقدّس»

ريغفيدا

(١)

«ماء في السماء، وماء في الأرض. إن عدمتم ماء السماء، ففتّشوا عن ماء الأرض». تكلمت عرافة الضريح بالنبوءة بصوت مسموع، ثم زبرتها بسيخ النار في رقعة الجلد، وبعثت بها إلى مجلس العقلاء. ولكن الأكابر الذين أعتادوا التوريات في أنباء الخفاء لم يصدقوا الفوز بنبوءة لا تحتاج إلى تأويل طويل، فبحثوا عن المعنى الخفيّ وراء معنى العلن، ليالٍ، وشكّكوا في الرسالة الظاهرة بالقول أن الناموس حذّرهم من قبول الظاهرات، لأن مَنْ سلّم بما رأى، وآمن بما سمع، وقَبِل ما وُهب، نال مصيراً كمصير العابر الذي خالف شرع السبيل، فانحنى على حيل ملقى على قارعة الطريق، فأخذه وطوّق به خاصرته، فاستحال الحبل ثعباناً، وفتك به عندما هجع للنوم في الليل.

استمرّ جدل الأكابر أياماً، ثم بعثوا لكاهنة المعبد برسول يحمل السؤال الذي سيقطع الشكّ. تلقّوا رقعة النبوءة بعد يومين: «ماء في السماء، ماء في الأرض، إن عدمتم ماء السماء، ففتّشوا عن ماء الأرض».

كفّوا عن الجدل، وتشاوروا حول الموقع. استطلعوا الجهات الأربع، ثم استقرّ الرأي على منخفض يقع جنوب السهل. نحروا جدياً أسود، وبدأوا الحفر.

(٢)

يتغنّى الشعراء ببهاء الحمادة الحمراء فيقولون أنها معشوقة السماء. ارتفعت عن قامات الصحاري الأخرى بمسافات طويلة، وعبرت الفضاء، ولا حقتْ الأنواء النائية، في طريقها للإلتحام بالمعشوق. استعارت من الصلد سيقاناً، وسعت إلى الأعالي على أعمدة من شعاف الجبال، ولكنها توقفت في منتصف السبيل لسبب لم يرث له الأحفاد تفسيراً حتى في تراث الأسلاف. ولكن الخلف ورثوا عن الأجداد الأغاني الحزينة التي تشبّه الرقعة المعلّقة في الفراغ السماوي بعابر اختار العزلة لا فراراً من الناس، ولكن رأفة بالناس، فأضاع السبيل، وصار له التيه وطناً وحيداً. الحمادة التي تسبح في الفضاءات أيضاً وطن تائه، وإذا لم تنل من السماء زادها من الماء، ضرب الظمأ أراضيها وعجزت عن ملاحقة المياه التي تفرّ إلى أحاضيض الصحاري الجنوبية (حيث قامت بحيرة واو الكبرى يوماً، ويجثم بحر الرمال العظيم اليوم)، أو تتسلل شمالاً لتصبّ هبتها في غمر اليمّ البعيد، فيقال أن الحمادة الحمراء هي البقعة الصحراوية الوحيدة التي تغذي الأرجاء المجاورة بدمها، وتهب الصحاري الأخرى سرّ الحياة، لتختار الجدب قدراً، عملاً بوصايا الناموس الذي يقول أن الأرض اليابسة أكثر نُبلاً من الأراضي الندية.

وبرغم الارتفاع الهائل، برغم فرار الفيض شمالاً وجنوباً، فإن

الصحراء المعلّقة وجدت سبيلاً لإخفاء مياهها في الصلد الصارم، فامتدت يد العابر، منذ أقدم الأزمان، لتحفر في الصخور الصمّاء دروباً لا تدرك لها الأبصار قيعاناً، سمّاها الصحراويون، فيما بعد، آباراً.

جاء من الغرب أسلاف مجهولون، فأقاموا، وطاب لهم العيش في رحاب الجرم المعلق، ولكنهم مالبثوا أن فوجئوا بالحريق، وذاقوا مرارة الظمأ، فبقروا بطن الأرض، وفتتوا الصلد بأظافرهم، ولم يُكتب لهم أن يدركوا الماء إلاّ بعد أجيال. توارثت القبائل بئر الحمادة الغربية، وأطلقت عليه أسماء كثيرة اختلفت من جيل إلى جيل، فكان آخر أسماء البئر الغربي «أفرطس».

وجاء من الجنوب قوم، فلاقوا نفس المصير الذي عاشه أسلاف الجهة الغربية، فحفروا التراب بحماس فاق همم الفئران، ونالوا، في البُعد، ماء، وأطلقوا على بئر الجهة الجنوبية أسماء كثيرة، كان آخرها اسم «بئر العطشان».

من الشمال جاءت أقوام، وانقضّت تفتّش عن نصيبها في أحاضيض السلاسل الجبليّة المهيبة التي تتميّز بها المساحات الشمالية. ويقول الرواة إن حظّ هذه الأقوام كان أسوأ من حظوظ القبائل الأخرى، لأنها حفرت آباراً كثيرة جداً قبل أن تستخرج ماءها في بئري «آوال» و«آمغرغر». ولا يزال الرعاة يكتشفون بقايا تلك الآبار، ويجون أفواهها مدسوسة تحت ألواح

حجرية مسطّحة، مستديرة، فيبتهجون، ويهلّلون، ويتنادون، ظنّاً منهم أنهم عثروا على فم جديد للأرض، ولكن فرحهم يعقبه حزن عندما يعلمون أن البئر ليس سوى هاوية فارغة. وبرغم الخيبة فإن العقلاء لا ييأسون، وكثيراً ما عثروا على آبار عابرة هي بصهاريج تخزين المياه أشبه، لأن ماءها ليس عطناً ومرّ الطعم أو غريب الرائحة فحسب، ولكنه قليل الكمّ، لايلبث أن ينضب بمجرد أن ترده قطعان الإبل مرّة أو مرّتين .

ولكن أغرب الآبار، وأعمقها، وأقدمها، فهو بئر بهركات، الواقع في قلب الكوكب المعلّق. يسمّيه الشعراء في أغانيهم « هبة أهل العشق»، أو « أعجوبة العشاق» لأن الرواية بشأنه تقول أن عاشقاً من قبائل الأولين حفره علامة وفاء لمعشوقته التي جاءت من الشرق لتقترن به، فأماتها الظمأ في الطريق. بكاها العاشق زمناً، ثم رأى أن مجده ليس في بكاء المعشوقة في الأشعار، ولكن في قهر الغول الذي أخذها منه .

فتّش العاشق الحمادة الممتدة من أقاصي الشرق حتى المساحات الوسطى شبراً شبراً، وحرثها بجيش من الأعوان والخدم والأتباع، فلم يعثر حتّى على النداوة التي تخلفها مياه السيول في طبقات الأرض السفلى. ولكنه أكترى مزيداً من الأعوان، واشترى بالمال جيوشاً من العبيد، واستعان بخلق أتى من كل فجّ، ومضى يعاند الصخر، ويفتت الصلد، دون أن يفلح في

العثور على الثرى. انهارت سقوف آبار كثيرة في هذا العراك، وانتزعت الأرض قرابينها بيدها مرّات كثيرة أثناء هذه الانهيارات، وفرّ عبيد كثيرون، وتخلّى أعوان أكثر، ولكن العاشق كان يشتري بالمال مزيداً من العبيد بدل أولئك الذين لاذوا بالفرار، ويغدق على أعوان جدد بسخاء أكبر تعويضاً لجيش الباحثين الذين تخلّوا، فيستمر الحفر بحماس أقوى في كل مرّة يستقبل فيها الجيش في صفوفه وافدين جُدداً، وتُحرث أراضٍ أخرى مع مرور الوقت، فكان قائد الجند هو الإنسان الوحيد الذي لم يشعر بمرور الزمن، و لم يلحظ تبدّل الفصول، و لم يبلغ سمعه صراخ الخلق الكثير الذي وُلد، كما لم يبلغه نبأ الخلق الذي تعب وهجع إلى جوار الآباء تحت أكوام الحجارة في أضرحة السفوح، فمضى ينحني على التراب، يحدّق في وسمها كأنه يقرأ في الوسم نبوءة تؤكد أن الحياة ليست ان تركض في المدى بحثاً عن اللقيا وراء الأفق كما يفعل أهل العبور، ولكن الحياة أن تركع أرضاً وتفتّش عن الكنز في أسفل الأسافل. لهذا السبب تغضّنت بشرة العاشق، وتشابكت العروق حول وجهه وساعديه، ولكن قلبه لم يعرف الشيخوخة، والشرر في صدره لم يهمد، وحماسه لم يهرم. لهذا السبب فقد كل أنداده وأقرانه، وكلّ الأوائل الذين عايشوه، في حين صار هو الإنسان الوحيد الذي ورث الجيل كلّه .

ورث الجيل لأنه لم يسر في سبيل الجيل. توارى الأنداد لأنهم سعوا في الأرض طلباً لشيء لا وجود له، وخلف هو الأنداد لأنه لم يسعَ في أرض، ولم يطل ما لاوجود له في أرض. مضى الأقران منذ زمن بعيد وأورثوا الحياة لمن تخلّى عن الحياة، ولم يشأ أن يرث ما يظنّه الآخرون حياة. كان العاشق قد نسي الغاية من الحفر اليائس، ونسي علّة العراك المميت، لأنه نسي نفسه منذ زمن أبعد، حتّى أنه لم يرفع بصره عن الأرض عندما أقبل عليه الأعوان ونقلوا بشارة تقول أن الصلد هُزم أخيراً، والماء فزّ من الصخرة الصماء .

(٣)

تروى الأغاني أن الماء تفجّر من الصخرة الصوانية بغزارة الينابيع، ومضى يتدفّق في الخلاء طوال القِدْمة التي أعقبت زمن العاشق. ولكن الكنز بدأ يتراجع في الأجيال التالية، ومضت الأرض تبتلع مائها حتى غاب عن الأبصار، فاحتاج الوصول إليه إلى حمل كامل من حبال المسد. وما زالت القبائل تتحدّث عن العابرين الذي قصدوا البئر، ولكنهم هلكوا وهم يحومون فوق الفوهة ويتفرجون في الهاوية على مرأى الماء لأنهم لم يتزوّدوا بكتل كافية من الحبال. وفي أزمنة أخرى حاول الدهاة أن يعالجوا الأمر فتركوا فوق الفوهة أكواماً من حبال المسد رحمةً للعابرين.

ولكن الشمس والأتربة كانت تسبق السابلة إلى الحبال فتتلفها وتبيدها في زمن قصير، فسنّ العقلاء ناموساً جديداً، أصبح مع الوقت تقليداً نبيلاً، يوجب على كلّ من ورد البئر من أصحاب القطعان أو القوافل أو القبائل المتنقلة أن يأتي بزادٍ من الحبال يتركه فوق الفوهة وراءه مقابل التزوّد بحاجته من الماء. تراكمت فوق الفوهة كتل الحبال، وتكاثفت في شباك مضت تتمدّد هنا وهناك، وتلتفّ في العراء المجاور حتى استحالت غابة حقيقيّة: لفافات من حبال المسد، لحست الشمس الوحشية بعضها فابيضّ الليف، ونهش الغبار وذرات التراب بعضها الآخر فلم يبهت لونها فحسب، ولكنها تآكلت وبادت. وأكوام أخرى أحدث عهداً، تبدو من مسافة أبعد كأنها حُبكت للتوّ، فيتخيّل من شاهدها أنه سوف يعرف النكهة الحميمة إذا اقترب خطوة. نكهة الليف النديّ، الطازج، نكهة الواحات، نكهة التمور ومواسم الرطب في بداية الخريف .

بالجوار تكاثرت حبال أخرى، محبوكة من شعور المعز أو من وبر الإبل. وهي حبال ضفرت بإتقان أكبر، فيقول الشعراء إنها حيكت بأنامل حسان يرتجفن خوفاً من سوء السمعة ومن العار، فيبالغن في العناية، ويحبكن الحبل بنفس الوجل الذي يحبكن به زمام المهري أو حبال سروج الفرسان، لأنهن على يقين أن الأغراب الذين سيردون فوهة البئر، سوف يستقصون،

ويسائلون، ولن يعدموا حيلة تقودهم لمعرفة صاحبة الحيكة. فإن أحسنت نظموا في حقّها قصائد الثناء، وإن أساءت رجموها بأغاني الهجاء .

ولكن ملاحم الأجيال كانت من نصيب الطوق العجيب: فم صقيل، لا يتجاوز قطره الذراع الواحد، يستدير استدارة صارمة، ويجمع الكثيرون أن حميميته ناتجة عن هذه الصرامة بالذات. لصلده لون فريد: ينتصف النهار، فتستبد شعاعات الشمس، فيُرى حجر الطوق ناصعاً في بياضه، تميل الشمس إلى الغروب، وتزرع الأفق بأشعة الغسق، فيتبدّل اللون في الطوق، ويستعير لون ذرات التبر من أفق الغروب. يهجم المساء، وتحلّ في الصحراء العتمة، فيكتئب الطوق أيضاً، ولكن الفوهة تستمر مضيئة إضاءة غامضة، كأنها تنادي مريديها من السابلة، أو تتبادل مع الأنواء النائية رسالات سريّة. وفي الأمسيات التي تطلع فيها الأقمار، فإن الطوق يبتهج مرة أخرى، ويستعيد لون المرح .

ولكن الوسم على حجر الطوق أشدّ بهاءً .

الحواف كلها موسومة بعلامات خطّتها الحبال عبر أجيال وأجيال، فتبدو في الصلد الأملس، الشفاف، كأنها السيماء على أفخاذ الإبل، أو أثر عميق لجراح قديمة برئت بالزمان. في الوسم اعتاد أهل الغيب أن يفكّوا إيماءات الزمان الذي سيأتي، ويُقال أن العرافين في الماضي كانوا يقصدون البئر لا للتزوّد بالمياه،

ولكن لاستنطاق الحجر، والوقوف على أخبار الزمان الذي مضى، والزمان الذي سيأتي .

في الطوق قيلت الأشعار من جيل إلى جيل، ولازالت الشاعرات العاشقات يتغنين به، فيقارنّ عاشقاً عُرف عنه الثبات في الحبّ بطوق بئر ، هركات»، وينعتن به أهل الصبر، ويصفن باسمه كل أمر إذا أردن أن يلصقن به صفة الخلود .

(٤)

حفر أشدّاء القبيلة في فجاج الشمال، وحفروا في أسافل السهول الجنوبية وحفروا أيضاً في أحاضيض تجاور هاويات الوديان في جهة الغرب، ثم يئسوا. حفروا أعماقاً بعيدة، بلغت قامات كثيرة طولاً، ولكنهم لم يدركوا حتى الثرى فيئسوا .

التأموا في ظلال العشيّات. انكفأوا على وجوههم كما اعتادوا أن يفعلوا عندما يستبدّ بهم اليأس. طبعوا بسبّاباتهم الغازاً على التراب، ولكنهم لم يتشاوروا باللسان، ولم يرفعوا أصواتهم بالجدل لأن الوجوم هو لغة اليأس دائماً. والذهاب في سبيل اليأس بعيداً اعتراف ببهاء التخلّي، والتخلّي هو الناموس الذي يأتي من المجهول بالإلهام . والإلهام هو الذي ذكّرهم بالحفّار في إحدى تلك العشيّات .

تذكّروا الإنسان الغريب الذي رافق القبيلة طوال السنوات

الماضية مع ولده الوحيد، ليتندروا جميعاً، كباراً وصغاراً ونساءً، بقناعاته بشأن الأرض فيقول أن الركون إلى العراء خطيئة الإنسان، والعابر لا يجب أن يأمن مكاناً لا وجود له داخل جوف الأرض، فينزل الوليدُ من وراء سنام ناقته حالما تتوقف القبيلة عن السفر وتقرّر أن تنزل أرضاً، فيقوم إلى الناقة وينزل عنها أحمالاً من الفئوس والمعاول وألواح حجرية أخرى ورثها عن أسلاف كانوا يتخذوها أدوات حفر قبل أن تعرف الصحراء معادن النحاس والحديد، ثم يسعى في المكان قليلاً، قبل أن يختار الرقعة المناسبة ليبدأ الحفر. يحفر طوال النهار إن نولت القبيلة المكان مبكراً، أو يحفر الليل كلّه إن نزلت القبيلة الأرض الجديدة في العشيات. يحفر ولا يتوقف عن الحفر إلاّ عندما ينجز في جوف الأرض كهفاً يكفي حجمه لإيوائه وإيواء الوليد. كان رجلاً ممتلئاً، يبدو في عقده الرابع أو الخامس، يميل إلى القصر، يرتدي لثاماً متوّجاً بتعويذة جلدية بارزة، يطوق بطنه بحزام جلدي سميك يمتد في العرض من قفص الصدر حتى أسفل السُّرّة قليلاً. ويرجع أهل الفضول سُمك الحزام إلى حشو سخيّ ابتدعه الحفّار لغرض لم يعرفه أبناء القبيلة إلاّ في ذلك اليوم الذي تعرّضت فيه النجوع لغزوة غادرة من قبيلة معادية، فرأوا الحفار يفرّ من قبره تحت الأرض ويقاتل الأعادي بالفئوس، وعندما أصابه الرماة بالسهام تلقّى عنه الحزام الضربات وكان له درعاً

حقيقياً، فأيقن أهل النجع ان الحفّار لم يتخذ الحزام العريض المحشو بأكوام القشّ والتبن لكي يساعده في الحفر كما يدّعي، ولكن لسرّ آخر. ويحكى أن غرابة أطواره ترجع إلى عهد أبعد. فقد اقترن بصبية تمتّ له بصلة قربى، فحفر مرقداً تحت الأرض في خباء الليلة الأولى، واخفى فوهة الكهف عن الأنظار بلحاف، و لم يكشف عنها إلاّ بعد انصراف رعاة القران. ساعتها فوجىء الصبيان الأشقياء (الذين اعتادوا أن يندسوا في زوايا الأخبية ليتجسسوا على الأقران في الليلة الأولى) بهرج، ورأوا القرينة تفرّ من الخباء غاضبة. قيل أنها قالت أنها ليست حيّة أو فأر أو هامة من الهوام القبيحة حتى تقبل الإقامة في بيت تحت الأرض. فبعث لها الحفّار بوصيّة تقول أنه اختار الدخول إلى التراب لا لأنه لا يستطيع أن يأمن مكاناً غير الأرض فحسب، ولكن لمزايا أخرى لا تعلمها القبيلة، فسلّطت عليه القرينة الشاعرات، وقلن في مسلكه قصائد هجاء مميت رددتها حسان القبائل المجاورة. ولكن لا قصائد الهجاء، ولا الخوف من العار، استطاعتا أن تجبرا الرجل على الخروج من كهوفه السفلية. بل أزدادا في الزمان التالي تعلّقاً بالأمر، وأكثر من الحفر، فكان يصنع لنفسه أكثر من بيت واحد في الآونة التي تستقرّ فيها القبيلة في أرض لزمن طويل. أما القرينة فلم تعد إلى الأبد، ربما لأنه لم يسعَ لردّها، وربما لأنه لم يغفر لها غضبة الليلة الأولى، وربما لأنه لم يفهم، أو

لم يشأ أن يفهم كما فهم بقية أقرانه في الصحراء أن المرأة بلاء لنيله يجب التنازل لا عن الكبرياء وحدها، ولكن عن أشياء كثيرة أخرى .

انجبت له القرينة الوليّد قبل أن تتبدّد من الصحراء أثر وباء قاتل حصد من القبيلة أبناءً كثيرين، فأخذ الولد من أهل الفتاة وأدخله الحُفر، ثم أتى من عشيرته بأمتين ورثهما عن أسلافه، كما ورث عنهم أدواته الحجرية، لتشرفا على تربية الوليد، ولكنه تخلّص منهما بعد زمن لم يدم طويلاً، وقال ان من اختار سبيل الأرض، وسلّم أمره إلى التراب، لن يحتاج لا إلى إماء ولا إلى عبيد، ومعاناة الصغار، حتى لو كانوا أطفالاً، اهون من الصداع الذي يسبّبه التعامل مع ملّة كريهة ولئيمة كملّة الخدم. في البدء تابعته نساء القبيلة بإشفاق، ثم تحوّلت الشفقة إلى إعجاب في الزمن التالي، فكنّ يعترضن طريقة ويعرضن عليه المساعدة في معاندة الوليد، ولكن الحفّار كان يشكر لهن تعاطفهن دائماً، ويرفض قبول المساعدة بأدب لم تجد له النساء مثيلاً إلاّ لدى المعتزلة الذين انقطعوا في الخلوات لأزمان طويلة. فقيل أنه كان يحمل الوليد في شبكة من الحبال على ظهره في الأوقات التي يخرج فيها لطلب البعائر أو لجلب الحطب أو لجني الترفاس، وقيل أنه كان يعرف كيف يخفيه عن الأنظار في شقوق المرتفعات الجبلية أو في حفر لا يهتدي إلى أفواهها أحد سواه، وقيل أيضاً

أنه أتخذ قرينة فاتنة من نساء أهل الخفاء تولّت عنه تربية الوليد، واقسم الكثيرون بأعظم آلهة الصحراء أنهم رأوه مراراً يرافق الحسناء في تنقلاته، ولكنها كانت تتبدّد وتختفي ما أن يقتربوا، وتحدّث آخرون فقالوا أنهم سمعوه بآذانهم يحدّث الجنيّة، ولكنهم لم يقعوا لها على جرم، ولم يروا لها بدن .

(٥)

الارض كلّمته ..

كلمته الأرض فلم يشيّع نحو السماء عينا .

لم يرنُ إلى السماء منذ خرج من جوف الخباء ودبّ على الأرض في المراعي البعيدة. في الطريق إلى المراعي سمعها تتكلّم لأوّل مرّة. تكلّمت في أنصاب الحجارة. تكلّمت في قامات الطلح عندما تتلحّف بعتمة الأمسيات. تكلّمت في زهور الرتم التي تصرع بالشذى، وتملأ الصدرو وَجْداً ودواراً وحنيناً. تكلّمت في هامات الجبال الشمالية المعمّمة بلفافات سماوية نُسج لونها من قبس الفجر. تكلّمت في امتدادات الخلاء الصارمة التي تستدرج العابر فيستسلم، ويتخلّى، ويمضي، فيأخذه في السبيل إلى المجهول فلا يعود إلى الوراء أبداً. تكلّمت في سكون ليال تتسلّط في فضاءاتها فيوضات الأقمار، فتسكين، وتعتزل، وتتخلّى، كأنهار رأس الكائنات اللامبالية .

كلّمته بألسنة كثيرة، فأدرك، وفاض فيه القبس المبهم، فبكى، وركع، فلم يسمع همساً غير همسها، ولم يرَ جرْماً غير جرمها منذ ذلك اليوم البعيد .

بعدها فرّت السماء من السماء، ولم يبق في الأرض إلا الأرض.

(٦)

منْ أخبره، في أزمان النسيان، أن الأرض هي البيت؟ هل هو الأب الذي لا يذكره؟ هل هو زعيم القبيلة الأقدم؟ هل هو هاتف السلف؟ هل هو رسول أهل الخفاء؟ أم أن الأرض هي التي تكلمت بالنداء المجهول وأسرّت له بأنها أمّ لا يجب أن تُخان.

في ذلك الزمان، أيام الطفولة واللهو والنسيان، كانت الأرض قريبة جدّاً. يخرج للعب بين المضارب زحفاً. يخوض في أتربتها وطينها ويعفّر وجهه برملها. ارتفع عن صدرها شبراً ودبّ في راحتها بخطوات متعثّرة. ينهض مرّة ويسقط أخرى. يعلو عقله أصبع فينتابه الفزع. فزع مجهول، جليل، مجبول بالخطر. خطر الخوف من السقوط؟ خطر الخروج بلا عودة؟ خطر الخطوة الأولى في سبيل التيه؟ أم هو الإحساس الخفيّ بقرب فقدان الفردوس، وصوت النذير الذي ينادي بحلول ميعاد الهجرة التي لا عودة منها ؟

ولكن الرحلة لا تبدأ في غمضة. لأن الصحراء الغامضة لا تدع الأولاد يخرجون بلا وصايا. يبدأ الدرس منذ الخطوة الأولى، فيتلقّى العابر الصغير نبوآتها في مرونة الطين الذي يعبث به، وفي النباتات الشحيحة التي تجود بها في مواسم الأمطار، في حبيبات خفيّة، تدسّها في عجين الخبز الذي انضجته رمالها. بعدها تقوده من يده في سفرةٍ أخرى. تطوف به المراعي كي تعلّمه دروب الخروج. في السهول العارية تطلق عليه الرياح التي تصفع وجوه العابرين بالحصباء، أو تتجهّم وتعبس وتدلق أمطارٌ سخيّة، أو تتنفّس ناراً حامية في مواسم القيلي، أو تتنزّل برداً في فصول الشتاء. تأتي حيلاً كثيرة لتقول للعابر الوليد أن سبيل العبور موحش ولاخلاص له إن لم يستعن بها، إن لم يحتم بها، إن لم يبق على وفائه لها. فيعلم، ويتعلّم، منذ اليوم الأوّل، أن في هذه الرقعة السمحة، الغامضة، التي تتمدّد وتتوالد إلى الأبد، سرّ لا يستطيع أن يستغني عنه أبداً، فيها تلك التميمة المبهمة التي لاغنى عنها لمسافر التيه .

(٧)

عندما جاءه رسول الأكابر، في مساء ذلك اليوم، كان يستعيد السيرة، ويختبيء في قبوه. كان يستعيد التميمة لأنه لم ينسها يوماً كما نساها الآخرون. لم ينسها لأن الأمّ لم تقلها له

في ذلك الزمان المنسيّ كما قالتها للأقران. لم ينسها لأن الأرض صرخت في أذنه بالوصيّة كما اعتادت أمّهات الصحراء أن يصرخن بالأسماء في آذان الأطفال الذين وُلدوا للتوّ. ربما لهذا السبب لم يسلك السبيل الّذي سلكه الآخرون في رحلة العبور. سلك الآخرون طريق الأفق، وسلك هو طريق الأعماق. سار الأقران، كما سار الذين سبقوهم، في سبيل الخلاء المديد، ونكس هو الرأس، وانكفأ إلى الجوف، فأنشأ في صدره بيته قبل أن يبني الأقبية في التراب، فراراً من تيه المدى، واحتماءً بالأمّ من غول الفقد.

كان يستعيد السيرة عندما زاره رسول الأكابر .

اعتاد أن يستعيد السيرة كل يوم، بل مرّات في اليوم، لأن الأمّ التي التجأ إلى صدرها كانت تعيد الوصايا على سمعه خشية أن ينسى، وتكلمه في كل مرّة بوصايا جديدة. يتصنّت فيسمع العرافة وهي تسخر من أولادها الأشقياء الذين فرّوا، وركضوا في الخلاء، مشدودين إلى الآفاق. يستسلمون، ويندفعون، فيتدحرجون كما تتدحرج كرات الأعشاب اليابسة التي يسوقها الريح. ينسون الأسافل ما أن ينسوا الوصايا، فيرون في دبيب الباطل وطناً، ويحرقهم الطلب بنيران الحنين، فيندفعون، فتتحوّل أقدار التيه القديم ضياعاً حقيقيّا ومميتاً .

يتسمّع فيسمع وقع أقدامهم من المخبأ. يدقّون الأرض كأنهم

يريدون لها الأذى، يمعنون في فظاظاتهم كأنهم يتعمّدون أن يخسفوا الأرض بالأرض، دون أن يتساءلوا عن المفرّ إذا انخسفت الأرض وفرّت من الأرض. يهيمون على وجهها كدهماء لا يعلمون ماذا يفعلون، ولا يدرون إلى أين يسيرون، ولا يعلمون ماذا يريدون .

يركن إلى الأرض، فيسمع، ويتسمّع، ويتفكرّ، ويعجب، ويزداد يقيناً بأن الخلاص لا وجود له إلاّ بالمضي بعيداً في الدهليز، والحفر في جوف الأرض مسافة أخرى .

استهترّوا بمأواه فلم يزده استهتارهم إلاّ قناعة، وهجته الشاعرات بالأشعار، فضحك على أشعارهن، في أقبيته، ملء شدقيه. ارتكب الخطأ يوماً، وجرى وراء الحسناء، وجاء منها بالوليد. ولكنه قرّر أن يغتسل من الخطيئة، فعلّم الوليد وصايا الأسافل والعزلة والسكون، ولم يهنأ إلاّ عندما جرّه معه إلى المخبأ، ووضعه في يد الأرض رهينة .

(٨)

في المجلس انكفأ على وطنه، وقرأ في الأديم الغاز التراب. قالوا أنهم حفروا، وفتّشوا، ومزّقوا بدن الأرض حتى يئسوا. قالوا أيضاً أنهم عرفوا أخيراً أنهم لن يجدوا سبيلاً إلى المياه إذا لم يهبّ لنجدتهم، فهل سيكون إبن الأرض عند حسن ظنّ أهل الأرض، أم سيردّهم وسيخيّب لهم الرجاء ؟

ازداد انكفاءً. طأطأ حتى لامس رأسه المدلّى صدره، ودبّت أصابعه ترسم في كتاب الأرض الإيماء ؛ حفر الأخاديد بالسبّابة، وطبع بجمع الأصابع آثار الكائنات: رفسة خفّ، بصمة ذئب، دبيب جعلان، زحف متعرج لحيّة .

قال ، أغولّلي ، :

– بئر السفح هدّنا. حفرنا هامات كثيرة فلم نبلغ حتى الثرى، فما معنى هذا ؟

توقّف عن بصم الأرض. امتدّت الأنامل تجمع حبيبات الحصباء. حبيبات بيضاء، وشهباء ودكناء وذهبية. شيّدها كوماً صغيراً. كُدْية تتوسط الاستواء. ثم بدأ يتناول الحصى الملوّن من الكوم ويرسم بالجوار العلامات .

تكلّم ،بمسوان وانضرّن، :

– لولا النبوءة لما احتجنا إلى هذا كلّه. أنت تعلم أننا لم نركن إلى الأرض استجابةً للأهواء، ولكن الزعيم هو الذي شاء. وما دمنا قد ارتضينا لأنفسنا البقاء في هذا المكان، فلا بد أن نهتدي إلى ماء يكون لنا في بقائنا عزاءً ووتداً. وقد غاب عنّا طوال بحثنا أن بيننا رجل يعرف هاويات الأرض كما يعرف أطراف أصابعه، فهل أخطأنا عندما أرسلنا في طلبك ؟

نظم الحبيبات الذهبية في خطّ عمودي، خرق العمود بسلسلة من الحبيبات الدكناء، فقام التقاطع البهيّ: علامة الربّة ،تانيت،.

تدخل البطل لأول مرّة :

– ركوننا إلى هذه الأرض من منفعة جليسنا المبجّل. فلن نحتاج بعد اليوم أن تهجر مأواك هنا، لتحفر مأوى هناك. فهل تراني أصبت فيما أقول ؟

حدج ،أهلّوم، بنظرة خفيّة. في عينيه الصارمتين ومض بريق. ولكنه انكبّ على العلامة من جديد. اختار من الكوم الحبيبات البيضاء. صفّف الحبيبات حول الجزء العلوي من التقاطع. ثم أحاط الجزء السفلي من العلامة بالحبيبات الشهباء، فانشطرت الدائرة حول العلامة بلونين، وانقسمت العلامة الأولى إلى علامات أربع. مثلثات أربع. المثلث أيضاً علامة الربّة ،تانيت،. تدخّل ،أمّامّا، من مكان آخر. تكلّم وهو يترنّح ترنّح المجذوبين. قبل أن يتكلّم تغنّى بذلك الأنين الملحون الذي اعتاد أهل الخلاء أن يسمعوه من المعمّرين النبلاء الذين سكنوا الأبدية من أزمان بعيدة، فلم يبق منهم بين الناس إلاّ أبدانهم الهزيلة.

قال :

– هيهات أن نرسل في طلب إنسان ليعلمنا حفر الهاويات. ولكن القدماء علّمونا أن نبحث عن سرّ الشيء قبل أن نشرع في طلب الشيء. وكلّنا يعلم أن الصحراء، كالسماء، في جوفها يكمن سرّ أكبر من الكنوز التي سلبت عقول أهل الجشع من قديم. وقد ورثنا عن الأوّلين أن سرّ الأرض من سرّ الصحراء ، ولو لم يُحم

الحكماء حول سرّها دهوراً لما استطاعوا أن يكتشفوا الناموس .

انطلق يسند القول بوصايا الناموس، ويترنّح بجسمه الهزيل يمنةً ويسرة، ويتغنّى بأنين يكاد يتحوّل لحناً من مواويل الأشجان. ثم تكلّم مرّة أخرى فقال أن الجليس أقرب إنسان إلى الأرض لأن الأشياء لا تبوح بسرّها إلا لمن أحبها وأعطاها الأذن الصاغية ومضى إلى أبعد فسلّم لها أمره. أخيراً انتهى إلى القول :

– جئناك لتخبرنا عن السرّ !

عمّ صمت. توقفت الأنامل عن تصفيف حبيبات الحصباء. ردّد « أغولّلي »:

– جئناك لتخبرنا عن السرّ !

ردّدوا القول بصوت جماعي. ردّدوا القول كأنهم يتلون تميمة من تمائم الأوّلين .

(٩)

– لا أخفي عليكم: في هذا الأمر لن تعدموا وجود السرّ .

ردّدها مرتين أيضاً، كما ردّدوا منذ قليل تعويذة المعمّر بالصوت الجماعي. رفع رأسه إليهم لأوّل مرّة، فرأوا في عينيه ألقاً، ووجداً، وبللاً.

قال بعبارة قاطعة :

– القربان !

تبادلوا نظرات دهش قبل أن يتساءلوا :

– القربان ؟

تنقّل بينهم بالنظر الجسور، فبدت تعويذته المشيّعة فوق طرف اللثام الأمامي أكثر بروزاً، وارتفاعاً. أعاد النبوءة :

– القربان .

احتج « أغولّلي » :

– ولكننا نحرنا قرباناً منذ أوّل يوم !

هنا استولت حمّى أهل الوجد على بدن الحفّار. ازدادت المقلتان بللاً، وأطلق آهة طويلة كآهات المعمّر أمامًا، عندما تغنّى بلحون الأشجان من صحراء الأبديّة. عصفت به القشعريرة فترنّح وانتفض. حاول أن يهادن الحنين فعاد إلى الرسم المقدّس. ولكنه عانى من خيانات الأصابع. يتناول حبّة الحصى فتسقط قبل أن يضعها في فراغ النظم. نفض يديه من التراب، ومرّر يده اليمنى على جلد الحزام العريض. زفر بانفعال. قال :

– ماذا تعلمون عن القربان؟ ماذا تعرفون عن الأرض؟ هل تنحرون جدياً أسود لاستخراج قلّة التبر، ثم تنحرون جدياً أسود أيضاً عندما تريدون استخراج الماء؟ هل تظنون أنكم تستهزئون بكنز الأرض، بكنز الحقّ، عندما تقدمون نفس الأضحية لكنزين ترى الكائنات في المقارنة بينهما إثماً جسيماً ؟

تبادل الأكابر نظرات التساؤل . توقفت أصابعهم عن العبث

بالتراب. تساءل « أغوللي ».

– الحق أننا لم نحفر قبل اليوم بئراً واحداً، فمن أين لنا أن نعلم ما هو القربان الذي تطلبه الأرض ثمناً للماء ؟

– قبل أن نتحدّث عن القربان دعونا نتحدّث عن المكان. لقد أُخبرت عن مواقع الحفر فعرفت أنكم أخطأتم المكان. ألا تعلمون أن الأرض جسد لا يختلف عن جسد الذبيحة؟ ألم تروا كيف يلتزم القصّاب الماهر سبيل المفاصل عند اقتسام اللحم؟ ألم تعلموا أن باطن الأرض مفاصل، والماء يجري في الأسافل كما يجري الدمّ في الأجساد ؟

هتف بإيمسوان وانضرّن.

– أرأيتم؟ ألم أخبركم بأننا لم نختر المكان المناسب مرّة واحدة؟

الحفّار لم ينتبه. طاف على المجلس بنظرة شاملة، ثم قال:

– الماء دم الأرض، ولا شيء يطلب قرباناً كالدّم. لا شيء في الأرض يطلب الدمّ قرباناً كالدّم!

انحنى فوق العلامة مرّة أخرى. سدّ ثغرة في المثلث الأيمن من الطرف العلوي بحبّة حصى. ردّد نبوءته كأنه يقرأها في إيماء العلامة المقدّسة: «لا شيء في الأرض يطلب قرباناً كالدّم ».

تساءل « أغوللي »:

– هل تريدنا أن ننحر قطيعاً؟ هل يكفي دم القطيع لنيل الماء ؟

– دماء القطعان هي قرابين الكنوز الفانية .

– إلى أيّ فئة من القرابين ينتمي الماء ؟

رفع إلى الجليس نظرة حزينة. قال بصوت كالهمس :

– الماء لا صله له بقاربينكم أبداً. الماء ليس كنزاً فانياً أبداً. الماء كائن آخر .

– حدّثنا قليلاً عن الماء !

– وهل يستطيع كائن مثلي أن يتحدّث عن الماء؟ اعترف أني جالسته أعواماً طويلة، ولكني لا أستطيع أن أدّعي فهم الماء.

– هل تريدنا أن نصدّق أن الجليس الوحيد يمكن أن يجهل سريرة الجليس الوحيد إذا استطاع أن يعاشره أزماناً تمتد إلى الأعوام ؟

– اعترف أن رحمة الأرض أوسع مما ظننت. وقد جاءني الماء رسولاً فكان لي في عزلتي أنيساً .

– ماذا يقول الماء؟ خبّرنا بمَ أخبرك الماء ؟

شيّع رأسه إلى أعلى فانتصبت التعويذة الجلدية المشدودة إلى طرف اللثام الأمامي. مال نحو « أغوللي » حتى كادت التعويذة أن تلامس لثام الجليس. ضاقت العينان. اختفت المقلتان. قال بصوت مجهول :

– لايفهم لسان الأرض إلاّ من سكن الأرض، ولا يدرك لغة الماء إلا من فقد لغة الناس .

عمّ الصمت. بعد قليل ارتفع صوت «أمّامّا» بأنين الشجن. تدخل «آهلّوم»:

– دعونا نعود إلى القربان !

وافقه أكثر من صوتٍ. قال الحفّار :

– هل تذكرون قربانكم لماء السماء ؟

سكتوا. سكتوا طويلاً. تساءل «أغولّلي» بارتياب :

– ماذا تريد أن تقول ؟

– أردت أن أقول أن السماء أخذت كاهن القبيلة ثمناً لماء السماء.

تبادل الأكابر نظرات أخرى. تساءل «أغولّلي» بشكوك أكبر:

– ماذا تريد أن تقول ؟

أسقط الحفار في العمود الذي يشطر الدائرة حبيبات أخرى. ازدوج العمود واختلّ النظم. سطّر حبيبات أخرى عبر الخط الأفقي فعاد الميزان إلى العلامة. قال دون أن يرفع رأسه :

– أردت أن أقول أن ماء الأرض ليس أبخس من ماء السماء .

تابعه الأكابر بعيون تطوف فيها الشكوك. عاد «أغولّلي» إلى الاستجواب :

– ماذا تريد أن تقول ؟

– أردت أن أقول أن قربان الأرض ليس أقل شأناً من قربان السماء!

ارتفعت في المجلس همهمة، وفرّ الحفّار واقفاً.

(١٠)

منذ عرف الأحافير، ووجد في الجوف أول قطرة، وهو يسائل الرسول من أي برّ جاء، وإلى أيّ وطن يسير. في الآونة الأولى كان ينزّ من شقوق الصخور لزجاً، شحيحاً، غامضاً. يمرّر أصابعه على الألواح الملساء فينتقل إليها الإحساس باللزوجة والبلل. يلعق رؤوس الأصابع بطرف لسانه فيستطعم الملوحة مرّة، ومزيج المعادن مرّة، واختلاط الأوحال مرّة، وحلاوة مياه السبول مرّة. ولكن سرّ الرسول المجهول يزداد غموضاً عندما يُسمع أثناء رحلة العبور .

في بعض المواقع لا يدرك له أثراً. ولكنه يسمع اللحون ما أن ينتهي من حفر المأوى، ويهجع لينام. يلتصق بالأرض، يزيح طرف اللثام الملفوف حول الأذن السفلى، ويتصنّت. يتصنّت فيسمع أحياناً هديراً جامحاً بعيداً، وفي أحيان أخرى يسمع لغواً لجوجاً، غامضاً. مع تدفق الزمان تعلّم شيئاً عن مسلك الرسول. يدمدم في حال الجموح، ويندفع كأنه يسقط من هاوية. يتخفّى في السبل السفلية كأنه يفرّ من موارد الجنّ، يسابق أهل العبور ليسبقهم إلى أرض لا وجود لها في الأرض، فيغنّي في سيره الأبدي بتلك الأغنية الغاضبة التي لا تفشي السرّ أكثر مما تخفي

السرّ. يتابع الأغنية فيكتشف لسانه المبلبل. تغلبه أوجاع الحنين فلا يعلم متى فرّ من العينين الدمع، ولا يسمع نفسه وهو يكلّم العابر بلسان العابر: « من أين تأتي أيها الماء؟ إلى أين تسير أيها الماء ؟ » أمّا في المرّات التي تهدأ فيها التيّارات السفليّة، ويتلذّذ بثرثرة المسافر الغامضة فإنه يعرف أن معشوقه ينهمك في مخاطبة الكائنات. مخاطبات مبهمة، ولكنها حميمة، وظامئة، في انغامها وحل العاشقين .

يتابع المخاطبات الغامضة حتى ينسى نفسه. يستغرقه اللسان، وتأخذه نبوآت الرسول، وتذهله إجابات الكائنات أيضاً. يستمرّ السهر، يحلو السمر، يغيب عن الأرض، فيصيبه الدهش بطلسم، ويردّه إيماء إلى التفكّر، وتقوده ومضة إلى باب الألغاز فيعجب، أو يقهقه، أو يتساءل، أو يفتّش، أو يغفو، فيتواصل السؤال ويجد السلوى، ويدرك الحياة الضائعة في أُنس ظنّه إغفاءة .

يأمل ألا يعود من الإغفاء. يأمل ألاّ يضطرّ لانتزاع الأذن من الأرض، يأمل ألا يقف على قدميه. يأمل ألاّ يخرج من ظلمات الدهليز. وكثيراً ما مكث تحت الأسافل أياماً كاملة، ولا يخرج إلاّ بعد أن يقلق العقلاء لغيابه، فيقبلون ليقتحموا عليه خلوة المأوى .

ولكن للفراق أيضاً ميعاد معلوم، وساعة الوداع لا بد أن تأتي يوماً. ينطلق النذير في الخلاء منادياً بيوم الرحيل. يدب في

النجع الهرج، ويتراكض الصبية بين المضارب، وتخرج النساء لتقويض الأخبية، ويقبل الرعاة بقوافل الإبل، ويشرع العبيد والخدم والأتباع في إعداد الغرائر وربط الأمتعة. فينزل ..

ينزل إلى الأسافل، يزيح طرف اللثام عن الأذن اليمنى، ويركع. يلتصق بالتراب. يتمدّد، يرقد على بطنه، يلمس الطين بشفتيه، فتتسلّل الحبيبات المالحة إلى الفم واللسان فيشعر بطعم ملوحة لذيذة. يزداد بالبدن إلتصاقاً، يلتئم بالبدن التئاماً، يصير قريناً ليلة الدخول على القرينة. يرتجف وتنتابه القشعريرة عند اكتمال الالتحام. ساعتها ينبثق اللحن الخالد من صلد الصخر. ترتفع الأغنية فتتسرّب عبر بدن الأرض لتسري في بدنه كلّه. يسمع النداء الأبدي، فيفيض الحنين، ويستولي على الدنيا الشجن، ويتمتم بلاحول: «هل لي معك في رفقة يا مولاي؟ لماذا لا تأخذني معك يا إله العابرين ؟ » يشتدّ النداء، يشتد إيماء الحزن في النداء، فيفرّ من المقلتين الدمع، وينتفض الصدر بشهقات النوح، ويقبل رُسل الزعيم لينتزعوه من المناجاة المحمومة بالقوّة.

(١١)

– هل لي معك في رفقة يا مولاي؟ لماذا لا تترفق بنا وتأخذنا معك يا إله العابرين ؟

ردّد التميمة لنفسه في البداية. قالها سرّاً، ثم قالها جهاراً، ثم

تغنّى بالنداء عندما اهتدى إلى المفصل وبدأ يضرب الأرض بفأس حجري مهول.

تجمّع حوله الصبيان في أوقات البداية، ولكن الأكابر ما لبثوا أن أقبلوا .

أقبلوا كما اعتادوا أن يقبلوا إلى كلّ مجلس. سار أمامهم المعمّر القديم، تصدم هبّات الريح جسمه النحيل فيميل مع الريح، وينحرف عن السبيل مسافة، ينحرف الجمع خلفه، ولكنهم لا يهبّون لنجدته أبداً. يعود إلى الطريق فيعودون ليمشوا وراءه. يلوّح بعكازه الصقيل في الفضاء، ويطلق أنّات أولئك الذين عاشوا طويلاً، ففقدوا أقرانهم، وأضاعوا أحبابهم، ودبّوا بين القبائل أغراباً .

وقف المعمّر فوق رأسه. حدّق في الفراغ المغمور بذيول السراب. حدّق بعينه الصغيرتين في مدى يعلم الجميع أنه لا يراه. لأن العيون التي اعتادت التحديق في أوطان الأبدية لا تستطيع أن تعود لترى خلاء الأحياء .

أطلق أنينه الموجع. أنين العُزّل. أنين المعزولين. أنين من عبروا مع من عبر في القِدْمة، ولم يبق منهم في الصحراء إلاّ أبدانهم الهزيلة، فكان الأنين في أذن الحفّار نواحاً آخر .

تكلّم ,أمامًا, بالنبوءة من الضفّة الأخرى :

– كنت على يقين أنك ستسعى في طلب السرّ. كنت على يقين أن الماء كنز لا يدركه إلاّ صاحب الطلسم .

تجرّد القوم من ثيابهم الفضفاضة. شمّروا على السواعد، أحكموا رباط الأحزمة، وبدأوا يحفرون .

(١٢)

في الليل سمع النداء .

هجع فسمع النداء عقب الهجعة بوقت قصير. لم يسمع النداء في تلك الليلة، ولكنه طاف مع العابر، وذاق لذّة الإنسياب، وتدفّق كما تتدفّق الأيام، وفقد المكان، لأنه اكتشف أنه موجود في كلّ مكان. وعندما استيقظ من الإغفاء سمع لغو الرسول بوضوح. سمعه يراقص نتوءات الصلد، ويتطاول في ألواح الحجارة، يتشتّت في حُفر الحضيض، يتشكّى حيناً، يزعق حيناً آخر، يرطن بلغة أخرى أحياناً. يهوي، يزبد، يستهوي، يلفظ الفقاقيع، يندفع في المفاصل السرّية، يسابق الأيام في خفية من سلطان الأيام، فيخبر كائنات الأسافل عن الهويّة، ويقول أنه جاء من السماء رسولاً، ليصير للأرض دماً، ليصير للأرض لساناً، ليصير للأرض روحاً، ليصير للأرض نداءً. لا يستحي أن يذيع السرّ ويقول لكائنات السبيل السفلى أنه نداء. لا يكلّم الأحباب إلاّ رمزاً، ولكن الكائنات تسمع كلمة ,النداء, بوضوح أهل الباطل، فتصدّق فرق ما تسمع، وتكذّب فرق أخرى ما تسمع .

(١٣)

في تلك الليلة أيقظ الصبي .

أيقظه وكلّمه في الظلمات: ظلمات القبو، وظلمات الليل خارج القبو .

فرّك الغلام عينيه بيديه واستنكر بصوت مسموع .

خاطبه فقال :

– حدثتك كثيراً عن العبور، فهل تذكر ما قلت ؟

مضى الصبي يدعك عينيه ووجهه ورأسه بيديه ويغالب النوم. أطلق همهمة مبهمة، ولكنه لم ينبس. حدّثه فقال :

– قلت لك أننا لا نأتي إلى الصحراء لنركن إلى الصحراء، ولكن كلنا نجيء لنتلاحق في الخلاء كما تتلاحق ذيول السراب: كبيرنا يسبق صغيرنا، وأوفرنا حظّاً منْ سبق الجميع ومضى وهو مازال في المهد صبيّاً .

لم يستجب الوليد، فمضى :

– وهناك الفئة القليلة التي تثقل كاهل الأرض، ولا تخرج إلاّ إذا سمعت النداء .

توقّف الغلام عن العبث بأطراف البدن. هتف بصوت غريب:

– النداء ؟

– النداء. النداء عطية السماء. النداء لغة الأرض. النداء هبة المسكونين .

سكت الوليد. غمغم بعد قليل :

– هل يتحدّث ،آمغار، * عن المسكونين ؟

– نعم. آمغار يتحدّث عن المسكونين، لأن للمسكونين سُبُلاً أخرى. المسكونون ملّة أخرى. لهذا السبب لا ينبغي للمسكون أن يتأخرّ عندما يسمع النداء .

– ...

– لهذا السبب أيقظتك. لهذا السبب أردت أن أقول لك أن ميعادي قد حان، وندائي يطنّ في أذني ليلاً نهاراً، فعِدْني بأنك ستحفظ العهد، ولن تبتعد عن أمّك الأرض أبداً .

همهم الوليد بأصوات مبهمة. أوضح الأب بعبارة قاطعة :

– احترس الفرار من الأرض، واعلم أنّك لن تذهب بعيداً حتى لو فعلت ذلك !

– ...

– أترك لك الفأس ميراثاً، فاحترس أن تبتعد !

تثاءب الإبن بصوت عالٍ، فسكت الأب. انكفأ الوليد على وجهه ونام. هجع الأب فارتفع في الأذن النداء .

---

* آمغار: الأب، الجدّ، الشيخ، الزعيم.

(١٤)

في هزيع الليل أيقظه البكاء .

نهض فوجد الإبن مّكوماً بالجوار ويبكي بأعلى صوت. همّ بأن يسائله، ولكنه تراجع وهجع. بكى الولد حتى الصباح، ثم خرج إلى السهل باكياً. رافق الرعاة عند خروجهم إلى المراعي باكياً فسألوه: «مالذي يبكيك؟ ». لم يجب. عاد من وراء الرعيان، وطاف البيوت. استوقفه العقلاء وسألوه: «ما الذي يبكيك؟ ». لم يجب. أخفى وجهه بين ساعديه ومضى. خرجت إليه النساء وتساءلن أيضاً عن سرّ البكاء. لم يجبهن أيضاً، فاعترضه الأقران. سألونه، وألحوا في السؤال، ولكنه عبر الخلاء إلى مرتفعات في الشمال، وهام هناك طويلاً .

القبيلة أدركت سرّ البكاء بعد أيام .

(١٥)

قاد الأكابر إلى البئر أعواناً واتباعاً وعبيداً، كأنّهم أبطال القبيلة يقودون الفرسان إلى الغزوات .

تتابعوا عبر خلاء المنخفض الواقع جنوب المعبد، وتبادلوا النزول إلى الأعماق مشدودين من أحزمتهم بحبال المسد. قطعوا في الحفر مسافة، وبلغوا الثرى الندىّ بعد الغور اذرعاً قليلة.

كانت الضربة التي استخرجت النداوة من نصيب الحفّار. تناول كتلة الطين المبلّل بين يديه. تناول قطعة وتذوّقها باللسان. اغمض عينيه وتلذّذ باللقمة جذباً نحو اليمن ونحو اليسار. أطلق أنين الاستحسان، وكلّم القوم بالبشارة :

– أراهن أنكم ستجمعون على حلاوة الماء كما لم تجمعوا على أمرٍ في حياتكم يوماً !

تكلمت الأعماق بنداء الأعماق، ولكن الخلق في الخارج لم يتبيّنوا العبارة. استفهم البعض بصياح في الفوهة، فرمى الحفّار بكتلة الطين في الوعاء المعلّق فوق رأسه، وهزّ الحبل المدلّى إشارة البدء بسحب الحبل. سحبوا الدلو، وتجاذبوا الطين البليل، فسمعهم يتهجون، ويتصايحون، ويتجادلون، وهم يتبادلون أوحال الكنز.

انحنى ودقّ الوعورة بصلد فأسه الحجري المهول. كانت أرض القاع مدهشة. في ترابها امتزجت حبّات الحصى، بقطع الحجارة البيضاء، بألواح صخرية نحيلة السُمك، بكتل طينية واعدة. حفر في قلب الهاوية أمداً، فوجد النداوة في هذا الجانب أندر، فتنحّى إلى جهة الغرب، ودق الأرض جانباً. دقّ مرّة، مرّتين، ثلاثاً. نزّ المولى بعد الضربة الأخيرة. نزّ من شقّ في الجهة اليمنى فزّ من مسام لوح من ألواح الصلد الأبيض، الناصع في البياض، وشرع يتعرّق، فيتفصّد العرق، وتتجمّع الحبيبات على

البدن الجليل، السـخيّ، الـذي أخفته الظلمـات عـن العين منـذ الأزل. ازدادت الحبيبـات سُـمكاً، وسمنـةً، وسـخاءً. جـرّ رأس الفأس على الشقّ المجهول، فالتحم الحجر بالحجر، وتكلّم الصلـد بصوت مكتوم. من كلام الصلد وُلد كائن حقيقي. انبثق الغمـر، واندفع إلى أسفل في قطرات كبيرة، متتابعـة، مـالبثت أن التـأمت في خيـط ظـلّ ينزف، وينزف، وينزف. ينزف فيهـوي علـى حجارة القـاع ليتكلّم. رآه العـابر لأوّل مـرّة، وسمع لـه همسـاً كشهقة استهلال الطفل الوليد .

(١٦)

تابع عابر السبيل وهو يتبدّل ويتحوّل سلسبيلاً حقيقيّاً. تـابع العابر الخفيّ وهو يستمدّ من المجهول جسماً. تابع العابر الخالد وهـو يتجمّع، ويتبدّى، ويتكاثر، ويستعير لساناً يتدفّق، ويجرى .

تابع الأعجوبة وهـي ترطـن، وتفيـض، وتغمـر الأحجـار، وتعلو في بحـيرة مسـتديرة، يهـوي عليهـا ضـوء الفوهـة، فتسـطع بالألق، والفتنة، والوجل .

ألّمت بإيقاع الغمر عجالة، فانهمر السائل من صلب الشقّ، وأفرزت مسامات الصخور المزيد، فتلوّى الكائن في سيره، وعَبَر، في سفره الخالد، إلى القيعان، فأبصر المريد، في عبوره، سرّ المولى، وميلاد الحياة الأولى .

اشتدّ إيقاع القلب، وهاجمه شجن الأوّلين، فصاح نائحاً: هـل لي من رفقة يا مولاي؟ لماذا لا تأخذنـا في السـفر يـا إلـه العـابرين؟ . بعدها ضرب الرقعة زلزال .

سمع القوم الزلزلـة في الأعـالي، ومـادت الأرض تحـت أقدامهـم بعنف. تدافعـوا إلى الهـوّة. انحنوا فـوق الفوهـة، فصفـع الـرذاذ الـذي أعقب الانهيار وجوههم. رذاذ متحثرّ، لـزج، ثقيـل، ممزوج بـالوحل والأتربة وحبيبات الحصباء. رأوا كيـف ارتفـت بقعـة المـاء إلى أعلـى، فعرفوا أن الانهيار الجوفي قد ضيّق خناق البـئر، فدفـع بمياه القـاع إلى أعلى. تنادوا، أحاطوا أجسامهم بأحزمـة المسـد، واندفعـوا يتدلـون في البئر محمّلين بالمعاول والأوعية الجلدية المخصصة لاستخراج الأتربة من الآبار. نزل إلى الأسفل ثلاثـة رجـال، بـدأوا يمـلأون الأوعيـة بـالطين والأوحال والأتربـة، يسـرعون لهـزّ الحبـال مـا أن يفرغـوا مـن ملئهـا، فيتعـاون أشـدّاء آخـرون ينتظـرون فـوق الفوهـة. مـلأوا ترابـاً كثـيراً، وسـحبوا الأوعيـة النهـار كلّـه، ولكنهـم لم يدركـوا الغريـق إلاّ قبيـل المغيب .

أدركه ، أغوللي ، . وجـده مدسوسـاً تحـت لـوح حجـري أبيض، مهيب، موسوم من جهته الخفيّة بخطـوط غامضـة كإيمـاءات السحرة كان مشطوراً بشبكة من العروق الدقيقة التي رسمتها القِدْمـة في صدر اللوح، وربما حفرتها مداعبات الكـائن الخفـيّ عـبر أجيـال وأجيال وأجيال، فصارت إرثـاً مبهمـاً كتمـائم الأوائـل المحفـورة في

جدران الكهوف. أزاح اللوح بحذر، ورفع رأس الحفّار. كان حاسراً من الجهة السفلى من اللثام، لحيته الفضيّة عفّرها التراب المبلل الممزوج بحبيبات الحصباء ولطخات الطين. على شفتيه ابتسامة خفيّة، في عينيه تسليم عميق. من جبينه نزف دم سخيّ ممزوج بخيوط الغمر الشقيّ. وحتى بعد أن انتشل الضحيّة لم يتوقف النزيف. مضى يفزّ من الجبين ويغمر الوجه والعينين والشفتين واللحية ويهوي إلى أسفل ليلتحم بالغمر في القاع .

عانقه ، أغولّلي ، طويلاً. مضى يعانقه حتى عندما لفّ الحبل الرهيب حول جسديهما بإحكام، وهزّ الحبل هزّاً عنيفاً إيذاناً ببدء الخروج.

تقدّم لسحبهما أشدّ الرجال. بلغوا الفوهة ففكّوا الرباط بصمت جليل. كان ، أغولّلي ، داميا أيضاً كلّه. غمر الدم وجهه وساعديه ولوّث ثيابه كلّها. رأى الرجال في عينيه إحمراراً وألقاً وبللاً. سجّوا الفقيد بجوار فوهة البئر، ففرّ ، أغولّلي ، إلى الخلاء .

أقبل أمّامّا.

وقف فوق رأس الغريق، وحدّق في الأفق المغمور باشعة الغسق. حدّق بعينيه الصغيرتين ثم أطلق الأنين الفاجع الذي يشبه النواح. قال أخيراً :

– كنت أعلم أنه سيسبقنا. كنت أعلم أن كلمة السرّ لا تكفي لنيل السرّ. كنت أعلم أن الدمّ هو ثمن الدمّ .

عاد إلى أنين النواح، فتذكر الكثيرون نواح الإبن، فعرفوا، ساعتها، أن بكاء الوليد لم يكن إلاّ نبوءة .

١٤

"واو" الصُغرى

« المدينة التي امتلكها أهل «تير» كانت مدينةً تليدة »

فرجيل

«الإنياذة»

(١)

في السنوات الأولى تدفقت مياه البئر بلا انقطاع .

تحسرّت القبيلة على المياه الضائعة، فحاول العقلاء أن يمنعوا تدفّق الماء. بنوا حوضاً منيعاً عند مصب النبع، وحضنوا النصيب الفائض بكتل الصلد وسدود الحجارة، وسمحوا للقبائل المجاورة أن تتزوّد منه بحاجاتها من المياه، وفرضوا مكوساً على أصحاب القطعان الذين آثروا أن يردوا البئر بالإبل والمواشي، واستبدلوه بالآبار النائية في الحمادة الغربية والوسطى. وبرغم الاستنزاف اليومي السخيّ للمياه، إلاّ أن الغمر الذي طلبوه طويلاً، ودفعوا في سبيله قرابيناً جسيمة، فاض عن حاجة القبيلة، وعن حاجات قبائل الجوار، فتمرّد على السدود، واجتاز الأحواض والحصون، ومضى يجري، في أنهارٍ صغيرة، إلى الأحاضيض السفلية، يسقي المساحات الواطئة التي تفصله عن وادي الرتم، فيغمر أراضٍ مستورة بطبقة طينية في بعض الأمكنة، ومكسوة بوعوثة لميسة في أمكنة أخرى، وهوى في الوادي، في الموقع الوضيع الذي تتسع فيه ضفتيه، فيتسع المجرى، وتتباعد الضفتان، وتتضاءل هوّة الأعماق السفلى .

في الآماد الأولى غلب الظمأ، وظلّت التربة تمتصّ المياه، وتتزوّد بالزاد كما اعتادت أن تفعل في مواسم الأمطار العابرة،

ولكن استمرار تدفق الماء، استطاع أن يبدّل مسلك الأرض أخيراً، فازدادت أشجار الرتم، في قاع الوادي، اخضراراً، وفاحت زهورها في كل الصحراء المجاورة، ونبتت بين الأشجار أحراش كثيفة، فتحوّل الوادي أدغالاً وغابة مسافة طويلة. أما في المساحات العليا الواقعة بين فوهة البئر وشعفة الوادي، فإنها تبدّلت أيضاً. في السنوات الأولى انبتت أعشاباً بريّة عجيبة، لوّنت المسافات كلها بفُرُشٍ بهيّة تعلوها ألوان زهور قسّمت المفارش الخضراء إلى قطع نالت اللون الذي وهبته لها الوان الزهور. فكانت للصغار مرتعاً في البدء، ولكن العطارين سرعان ما اكتشفوا مزايا النبات، فأقبلوا يقطفون الأعشاب، ليستخدموها في عقاقيرهم الخفيّة .

في زمن آخر رأى العقلاء ضرورة استغلال الغمر الضائع في العراء، فزرعوا قمحاً وشعيراً، وأتوا من الواحات الجنوبية بشتلات النخيل، فغرسوها. وكم كانت بهجتهم عظيمة عندما أثمر الغرس من أول عام، فتاءت عراجين النخيلات بأشهى أنواع البلح، ولم ينقض ذلك الموسم حتى أكلوا رطباً حقيقياً كأهل الواحات .

في السنوات التالية شبّ النخل، وكبرت أشجار الرمان والتين، وبذروا خضاراً أيضاً، وحصدوا الزروع، وكسبوا غلالاً كانوا يقايضونها من تجّار القوافل بأثمان باهظة .

تحوّلت الرقعة العارية، الكئيبة، الميّتة، بستاناً يراه المسافرون من مسافات بعيدة جداً. رغم هذا السخاء فإن الواحة الوليدة لم تشهد الرخاء، ولم تعرف زمنها الذهبي إلاّ بعد أن اكتشفتها القوافل التجارية، فبدّلت مسالكها القديمة، لتحوّل الواحة، في زمن قصير، مركزاً تتجمّع فيه القوافل القادمة من كلّ الاتجاهات.

(٢)

في الآماد الأولى جمع الناس أحجارهم في بيوت متباعدة، وشيدوا الجدران ببطء وشكّ وتردّد، ولكن الشكوك التي خنقت في النفوس حماس البداية، سرعان ما بثت فيهم روح المماراة، فتطاولوا في البنيان بإيقاع أسرع، فاكتست المرتفات وسلسلة الوهاد الممتدّة شمالاً بالأبنية، وانتشرت في أوقات تالية في المنخفض السهلي الأوسط، واستلقت غرباً حتى أشرفت على الامتدادات الطينية العارية من الحشونة وجلاميد الحجارة، حيث تتجمع مياه الأمطار في فصل الشتاء، وتجود أنسام الجنوب على البقاع بأتربة الوعوثات، فيكثر نعاع النبت في الربيع، وتخضر المساحات، فتخرج الصبايا لجني الكمأ الوفير، رغم أن الرعاة لاحظوا أن الكمأ يقلّ في الاستواءات المتاخمة للنجوع، في حين يكثر في المواقع الغربية التي تبعد عن المضارب مسافات أطول .

في البداية كانت الفوضى من سيماء البناء، وترتيب الأبنية

المتباعد والمتداخل والمنفر علامة واضحة لن تغيب عن بال المشاهدين والزوّار. ولكن النسق انتظم مع توالي الأيام، وازدحام البيوت، فالتأمت الجدران، وتلاصقت الأبنية، وتلاحمت الحيطان في نظام، فوُلدت داخل المساكن طرُق ودروب، وانشقت الكتل في شوارع وأزقة وسبل، وافضت الشوارع إلى فناءات وفراغات في وسط زحام الأبنية، فجاء الصنّاع والحدادّون، والزرّاع، ورعاة الإبل، ليتخذوا من المساحات الفارغة أسواقاً للبيع والشراء ومقايضة البضائع بالبضائع. كانت أزقة ضيقة ومتعرجة، ولكن عقلاء الواحة يعلمون أن تعرّج الشوارع وضيق الأزقة أمران ناجمان عن فوضى البناء في السنوات الأولى .

إلى ذلك العهد ترجع الألوان الشهباء المستعارة من قتامة البيئة المجاورة التي ليستها جدران الأبنية. ولكن القبيلة اكتسبت حيل الفتنة، مع الزمن، وتعلّمت فنون التجميل والتزويق مع استمرار معاندة الحجارة، فاهتدت إلى هباء الجير الأبيض، فرَشّت الحيطان باللون الناصع، وتألقت الجدران الملساء تحت شموس الضُحى، فبدت الواحة، في ذلك الخلاء الرمادي العابس، لعين عابر السبيل، مدينةً عجيبة من مدن الجنّ، أو واحة فريدة من الواحات المفقودة التي تتحدّث عنها أساطير الأوّلين فتقول أنها تظهر لسابلة لا يطلبونها، وتختفي في وجه آخرين يخرجون في طلبها .

(٣)

في شرق الرابية، التي يقوم عليها الضريح، أنشقّ شارع قصير يؤدّي إلى باحة تتوسط صفوف أبنية عالية تخترق أسافلها دكاكين اتخذها الحدادون مركزاً لضرب المعادن وإعداد الأنصال والسكاكين والسيوف والرماح والنبال ومستلزمات الحياة اليومية. في الناحية الأخرى من المعبد التأم المهرة وأهل الصناعات، فأوقدوا افرانهم الفطيعة، وشرعوا يشوون الفخار ليصنعوا للأقوام الدنّ، والقلّة، وقدور الطهي، وأوعية أخرى تليق بأهل الاستقرار، بدل أوانيهم الخشبية القديمة .

أمّا سوق البضائع فاحتلّ مركز الواحة، في جهة الجنوب، في الفراغ الذي يحادي البئر غرباً، والمهدّد الآن بزحف البنيان، وهجوم الدور، بعد أن كان في الزمن الأول مرتعاً للقطعان، وسهلاً مكسواً بأشجار الطلح .

هنا تتجمّع قوافل كل الانحاء. تقبل قوافل الجنوب بأحمال التمور ومصنوعات النخيل (كحبال المسد، والغرائر المحبوكة من ألياف النخيل، وأطباق السعف، ومستقطعات الجذوع التي تستعمل في بناء السقوف). وتقبل القوافل العائدة من بلاد الأدغال بأحمال التبر، وريش النعام، وسنّ الفيل، وجلود الحيوانات البريّة. ومن الشمال تأتي القوافل المحملة بالغلال

والزيوت والأقمشة وبعض المصنوعات المعدنية. يجري تبادل البضائع في سوق الواحة، وتتم المقايضات، وتنتقل عدوى الحمّى إلى الأهالي، فيندفعون في مساومات حامية، فيكتسب التجار خلاّناً، أو يحيون صداقات قديمة أماتها السباق وراء التبر، فيجتمعون حول موائد الأطعمة، ويجدّدون مع الأقران عهوداً لا يلبث السباق الجديد أن يضربها بوباء النسيان. ولكنهم لا يملّوا أن يتعاهدوا من جديد عندما ترتّب لهم الأقدار في الأسواق لقاءات أُخر.

في الواحة تتزوّد القوافل بحاجتها من المياه والحبوب، وكثيراً ما تتحرّر الدواب من أعباء البضائع، أو تتخلّص من الأحمال بمقدار، وقد تستزيد قوافل أخرى من أحمال بضائع أخرى. وفي سنوات الرخاء قصدت أسواق الواحة قوافل من الشمال ومن الجنوب ومن الغرب لتتزوّد من أسواقها الغنيّة بأنفس البضائع، مستثمرة قرب الموقع، ووفرة المياه، وبخس المكوس، وازدحام الأسواق بأندر البضائع. وكثيراً ما يتخاطب التجار الأقدم عهداً بالأسفار متعجبين: أمررنا بهذه البقعة مراراً، وعرفنا فيها خلاءً قاسياً مميتاً، فهل نجرؤ بعد هذا على القول بأن السماء كفّت عن الجود بالمعجزات؟ ألا يعني هذا أن الخفاء إذا نظر بعين الرضى إلى سلالة جعل لها من لا شيء سبباً للرخاء؟..

(٤)

أتت قوافل التجارة إلى الواحة بخلق كثير منذ السنوات الأولى. جاء بعضهم طلباً للرزق، وأقبل آخرون عبوراً إلى أمكنة أخرى، فاستهوتهم الأرض، وشدّتهم في الواحة الوليدة فتنة التكوين، فقرأوا فيها وعوداً، وأمّلوا في الاستقرار بها خيراً. وكان الفريق الثالث من شذّاذ الآفاق، وعشّاق المغامرات، الذين يهيمون في الفيافي حبّا في تغيير الأمكنة، فراراً من الوساوس، وتضييعاً للأنفس في البلدان، وطمعاً في أن تتبسّم لهم الحظوظ، فيعثروا، في يوم من الأيام، على أنفسهم التي اضاعوها.

سكن ديار الواحة صنّاع، وتجّار، وغانيات، وصعاليك. أقاموا في نزل الواحة الوحيد في البدء، ثم اكتروا دوراً في أزقة معلومة. وبدأوا يجذبون بعضهم مع الزمن على عادة الأغراب، ويلتئمون في عصابات وبجاميع ما لبثت أن استفزّت، بمسلكها وطباعها، السكان الأصليين، فوقعت منازعات، وتولّدت فتن، واشتعل فتيل الخلاف. اشتكى أهل الدّار، ورفعوا الأمر للمجلس. التأم الأكابر في ذلك البنيان الوحيد الذي ينتصب فوق الرابية، ويقع في حيّد الضريح الغربي. تشاوروا. تجادلوا. ثم اختلفوا. قال الفريق الأوّل أن الغرباء ادخلوا للأرض بدعاً غريبة سوف تعرف القبيلة خطورتها بعد زمن، لأنّها تخالف الناموس،

وتهدّد بنشر الدنس بين السكّان، وسوف تقضي، في القريب، على نقاء النفوس. ودعا هذا الفريق إلى البدء في تطهير الواحة من الدنس، وطرد الدخلاء في أول فرصة. ورأى الفريق الثاني في أفواج الغرباء كسبًا للقبيلة، ونفعاً لا غنى عنه لكل واحة جديدة. قالوا أن حلّ الدخلاء من أهل الحرف والكفاءات والصنعة. والأسواق سوف تتأثر بطرهم كثيراً، مما سيؤثرّ يقيناً في نمو الصناعات، وازدهار الأشغال، وانتعاش الحياة في الواحة .

لم تسفر الشورى عن رأي جماعي، فاقترح الحكماء الاحتكام إلى الضريح. رفعوا إلى العرّافة السؤال عن مصير الأغراب، فتوسّدت العذراء حجارتها الليل كلّه، وفي الصباح أرسلت للمجلس بوصيّة الزعيم: «لاخير في أرض لم تطأها أقدام الأغراب». ردّدوا الإلهام بوجوم يليق بالنبوءة، ثم تمتموا بالتميمة لأنفسهم قبل أن يخرجوا إلى رُسل الغرباء ليزفّوا لهم البشارة .

(٥)

اكتسب الدخلاء حقّ البقاء في ديار الواحة مقابل إتاوة موسمية، وسُنّت شرائع تنظّم علاقتهم بالسكان الأصليين، وتفرض عليهم واجبات تلزمهم احترام الأعراف، وتبجيل وصايا الناموس، وتحرّم عليهم التدخل في خفايا لا تهم غير الأهل الأصليين. ولكن أكثر المخالفات التي أدّت دائماً إلى إبعاد الغرباء

خارج الواحة كانت تتعلّق بخرق التحريم القديم الخاص بمنع التعامل بالعملات الذهبية وامتلاك كل مسكوكات التبر. فلا تمر أيام إلاّ ويُشاهد العسس وهم يقودون أحد هؤلاء الأغراب خارج أسوار الواحة بعد أن دُمغ بتهمة حيازة المعدن المشئوم، برغم أن الشرائع قضت ألا ينفّذ حكم المنافي ضدّ هؤلاء إلاّ بعد إثباتات صارمة من شهود عيان عقلاء .

ويُقال أن التعامل بمعدن النحوس هو الحظر الوحيد الذي أعجز هذه الملّة، فكانوا يتندّرون عليهم، ويتهكّمون على ضعفهم أمام إغواء معدن لا يمتاز عن بقيّة المعادن إلاّ بالبريق الكاذب، في حين يعترض الأغراب على الإتهام ويقولون أن حكماء الواحة وضعوا لهم شرطاً تعجيزيّا لا يقدر على تنفيذه بشر، لأنهم ينتمون لأمم لم تعرف معياراً للرخاء، وخالقاً للحياة، غير الذهب. وهم أنفسهم لم يتغرّبوا، ولم يضحّوا بحياة الأوطان، ولم ينطلقوا ليسعوا في الأرض، إلاّ طلبا له. فكيف يريدهم أهل الشرائع أن يتنازلوا عن غاية لم ينزلوا الديار إلا لنيلها؟ أم أن الأكابر فعلوا ذلك ليتحايلوا على النبوءة، فأخذوا منهم باليد اليسرى، ما وهبه لهم الزعيم باليد اليمنى .

(٦)

ما أن تقرّر تشييد الأسوار حتى استعر في مجلس الأكابر جدل

جديد. و لم يكن العقلاء ليلتفتوا إلى طعون في مزايا الأسوار لو لم يكن المعمرّ صاحب الاحتجاج. قيل أنه قال أن أسوار الواحات التي يسكنها الشجعان لا ينبغي أن تُشيّد من جلاميد الحجارة وكتل الطين، وإنما يجب أن تُقام من أنصال السيوف وأسنّة الرماح. وافقه الكثيرون بأن الأسوار لا تحمي الجبناء والمستكينين والمستضعفين حتى لو بُنيتْ جدرانها من كتل الحديد، وتيقّظ الفرسان هو الضمان الوحيد لحماية الأوطان، وردّ الطامعين، ولكن الأغلبية تحدّثت عن ضرورات الأسوار، ومزايا الجدار المحيط، مؤكّدة أن البنيان لن يكون بديلاً عن الأنصال، لأن الأقوام لا تبني الأسوار طعناً في شجاعة الشجعان، ولكن من باب الزيادة في الحرص والرغبة في مساندة سواعد القوم الحامية .

ويُروى في ذلك اليوم أن « أغولّلي » أجاب المعمرّ بالقول: «هل غاب عن مولانا أن أنصال السيوف تصدأ إذا مكثت خبيئة في الأغماد طويلاً، فكيف الحال إذا دُسّت الأنصال في ظلال الجدران أمداً أطول؟ » فراق الجواب للجمع، وردّدوه في خلوتهم إلى القرينات، وانتقل من ألسنة النساء إلى الأسواق، من الأسواق عرف طريقه إلى خارج الأسوار، فمدحته قبائل، واتخذته قبائل أخرى حجّة في عدائها للاستقرار والركون إلى الأرض .

ولكن الرواية تمضي فتقول أن «أمّامّا» لم يستسلم في ذلك اليوم. امتدت اصابعه النحيلة كعيدان الحطب، وأسدلت طرف

لثامه الأزرق على عنبه الصغيرتين المستورتين بغلالات العماء، وترنّح قبل أن يطلق أنينه من وطن الأبديّة ليقول: «وهل أعجزتكم الحيلة في أن تجدوا سبيلاً يأمن الأنصال من الصدأ؟» أطلق المجلس همهمات الاستحسان، وترنحوا أيضاً، ربما يأساً، وربما شوقاً إلى أمجاد الأسفار الماضية، وربما أملاً في الخلاص من عبودية الأحاضيض. فردّ « أغولّلي » بجواب غامض حمل فجيعة الزمن الذي مضى، وفجائع الزمن الذي سيأتي: «هيهات، يا مولانا، هيهات ....

(٧)

امتد جدار السور من المرتفعات الشمالية، وسار في طريق مستقيم في الجهة الشرقية حيث تنشق الأرض لتحتضن مياه وادي الرتم، والتفّ في المنخفضات الجنوبية ليشمل بساتين النبع وحقول النخيل والزروع. في هذه الناحية أقيم باب الواحات الذي تقبل منه القوافل القادمة من بلاد الأدغال، وقوافل الواحات الجنوبية. يحرف، في سيره التالي، انحرافاً دائرياً ليشمل عراء السوق، ويمضي غرباً ليستقطع من الاستواءات القديمة (التي كانت في القديم وطأ للكمأ)، حتى يفضي إلى باب الحمادة الغربية الذي تقبل منه قوافل الملح القادمة من «بحرّان»، وتستقبل منه الواحة قوافل الشمال أيضاً. ثم يواصل السور المهيب سيره

شمالاً ليلتف حول زحام البيوت المشيّدة فوق المرتفعات، ويضع حداً للمسيرة الدائرية الصارمة في الموقع الذي يعلو بنيان المعبد الدائري، فرى أهل الذوق في هذه المحاكاة إيماءً خفيّاً، ويقولون أن استدراة السور الكبير عمل مستعار من استدارة الضريح الجليل، وأصحاب البنيان الجديد استلهموا السيرة من عاشق الحجارة دون أن يدروا .

(٨)

طوال الزمان الذي مضى كان القوم لا يكتفون بمعاملة «أمّامًا» بالإجلال الذي اعتادوا أن يعاملوا به الأكابر، و لم يثر في نفوسهم الوجل الخفيّ الذي يثيره مرأى من بلغ من العمر عتياً فحسب، ولكنهم كانوا يرمقونه بإعجاب من عارك الزمان طويلاً، وغلب الزمان طويلاً .

وفي السنوات الأخيرة، عندما ركنت القبيلة إلى الأرض، وارتضت النوم تحت الجدران، واستطاع القوم أن يلحظوا التبدّل في أجساهم، وفي نفوسهم، رأوا أن معمرّهم المبجّل قد سبقهم في تحوّهم، وبدأ ينهار لأول مرّة، في عراكه البطولي مع الزمان. ازداد نحولاً، وتيبّست جلدته على العظم، واشتّد في أطرافه الهُزال، وبدأ يتلاشى، ويتبدّد، و لم يبق من جسمه إلاّ لفافة اللثام والثوب الفضفاض .

من الصوت تبقّت آهته الشجنية، وزفرات الحنين المميت الذي لا يعرفه إلاّ من انقطع في الخلاء طويلاً، أو عاش بين الناس غريباً، لأنه قد سافر منذ زمن بعيد، ودخل أوطان الأبديّة المجهولة، ومكث ليخاطب القوم من هناك. من هذه الأوطان الخفيّة خاطب القوم في اليوم الذي التأموا فيه ليتجادلوا حول إسم الواحة. ناح في ذلك اليوم أيضاً عندما سمع نيّتهم في إطلاق اسم «واو الصغرى» على الواحة الجديدة. غنّى النواح غناءً فاجعاً، ورفع سبّابته أخيراً ليحذّرهم قائلاً: «هل تريدون أن تسلّطوا سيف الزوال على رأس وطنكم الجديد؟ ألا تدرون أن إسماً حمل هذه الأحرف الثلاث لم يطلق على مكانٍ في الأرض إلاّ حلّت عليه لعنة الخفاء، وأدركه غول الفناء؟ » . حاججه البعض، وقالوا أن الفناء قدر كل ماوُجد، والخروج إلى ظهر الخلاء إيذان بالوقوع فريسة في بطن الخلاء، وهم لا يجب أن يطمعوا، استسلاماً لهذا المبدأ، في خلود «واوهم» لأن حالها لن يكون أفضل من «الواوات» التي قامت في الصحراء يوماً. أخيراً تكلّم « أغوللي » فخاطب المعمّر قائلاً: «كيف تطمع في إبقاء ما كنّا نحن أهل الفناء سبباً في وجوده؟ كيف تستطيع السلالة الفانية أن تعجن بيديها البائدة عجنةً خالدة؟ كل ما وُجد، يا مولانا، يزول، وكلّ ما وُلد يموت ». ولكن المعمرّ في وطن الخلود لم يسمع. ترنّح مرّة أخرى، واستلهم للواحة إسماً من المجهول: «الزعيم كان لميلادها

سبباً. الزعيم هو أب الواحة، هو صاحب الواحة. الزعيم اسم الواحة. تان أمغار. سمّوا الواحة تان أمغار، * ما أثقل هذا الاسم. ما أبهى هذا الاسم ! ، ردّده طويلاً، وترنح طويلاً، وتغنّى بالأنين طويلاً. لم يخفِ الأكابر بهجتهم بالاسم. ولكنه اسم بقي على شفاههم وحدهم. لأن تجار القوافل، وملل العابرين، كانوا قد نقلوا اسم «واو الصغرى» إلى أبعد الأوطان، منذ زمن بعيد .

* تان أمغار: أرض الزعيم.